

الحضارة العربية

تأليف

ي . هل

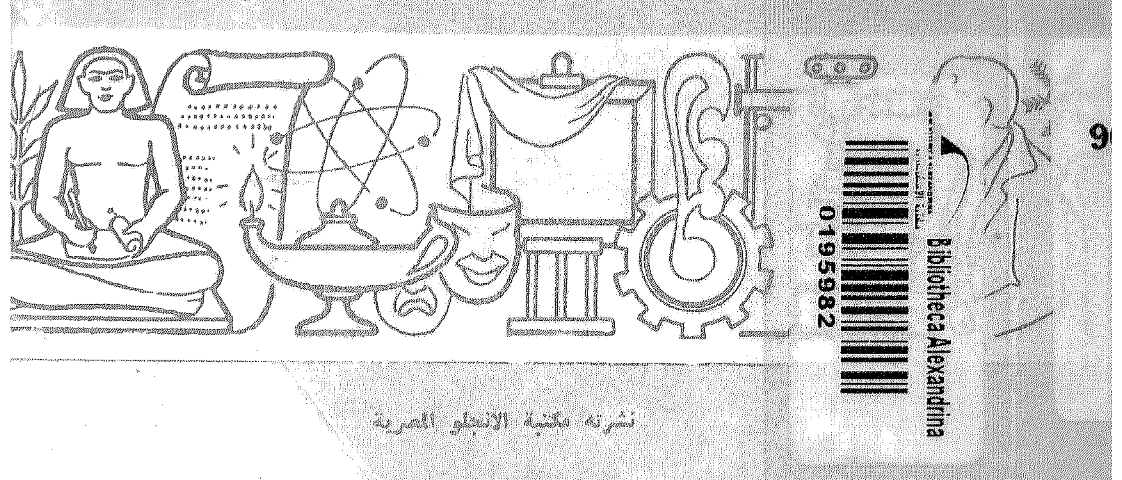
ترجمة

دكتور ابراهيم أحمد العدوى

راجعه

دكتور حسين مؤنس

يصدر
بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم بمصر



نشرته مكتبة الانجلو المصرية



الألف كتاب



(٨٨)

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم بمصر

الألف كتاب (٨٨)

الحضارة العربية

تأليف

ي. هِل

ترجمة
دكتور ابراهيم أحمد العدوى
أستاذ التاريخ المساعد
بجامعة القاهرة

راجعه
دكتور حسين مؤنس
أستاذ التاريخ الإسلامى
بجامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

هذه ترجمة كتاب :

DIE KULTUR DER ARABER

أشرف على ترجمة هذا الكتاب قسم الترجمة بالإدارة العامة للثقافة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة المترجم

لم يعرف التاريخ حضارة اكتسبت الخلود المقترن بالشباب اليانع غير الحضارة العربية . فبرغم قدم هذه الحضارة وأصولها فإنها ما زالت قائمة إلى اليوم ، لم تنل منها العصور والقرون وإنما زادتها قوة وفتوة ، كأنما تجد هذه الحضارة فى توالى الأزمان ينابيع دافقة تغذيها بماء الحياة .

وتحير المؤرخون والمنقبون عن الحضارات فى تعليل هذه الظاهرة الفريدة ، التى اختصت بها الحضارة العربية وحدها . فصرحها ما زال شامخا أمام أنظارهم ينبض بالحياة التى تبز الحضارات العالميـة المعاصرة عزة وأصالة ، والتى تتكشف فى نفس الوقت عن تفوقها على سائر الحضارات القديمة التى اندرست معالمها .

ودفعت هذه الحيرة نفرا من العلماء على التخبط فى تعليل خاصـية الحضارة العربية ، وعمدوا إلى مهاجمتها بغية تفتيتها أو كشف شىء من مظاهر النقص بها . ولـكن كيدهم تحطم على صخرة الحضارة العربية ، وقام خلفاء من بعدهم اتعظوا بما ناله أسلافهم ، وبدءوا يدرسون فى هدوء علمى وروية مميزات هذه الحضارة ومظاهرها ، مستهدفين كشف ما اختصت به من سر الخلود .

ومن أمثلة تلك الأبحاث الأخيرة هذا الـكتاب المترجم الذى ألفه الأسـتاذ ى . هل . ويتصف هذا الـكتاب بمعالجته موضوع الحضارة العربيـة فى إيجاز

شديد مقترن بالوضوح التام فى نفس الوقت ، مما جعله فريدا فى بابه بين الكتب التى تناولت تلك الحضارة . ويرجع هذا التوفيق الذى ناله المؤلف إلى أن كتابه تطور عن ست محاضرات كان قد ألقاها فى شتاء سنة ١٩٠٧ فى اتحاد المدارس العاليا بميونخ ، مستهدفا إعطاء صورة موجزة ولكنها واضحة عن تطور الإسلام ورسالته . إذ اتبع المؤلف فى كتابه نفس المنهج الذى سار عليه فى محاضراته ، حتى خرجت دراسته مترابطة متماسكة شديدة الوضوح .

واقتضى هذا الأسلوب العلمى إعتماد المؤلف على كثير من آراء وأقوال بحاثه ممتازين فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، مثل كريمر ، فلهاوزن وجرمه وغيرهم . ثم إنه لم يغفل أيضا الأبحاث الأخرى التى قام بها ليونى كيتانى ، وكارل هينرش بكر ، وهنرى لامانس ، عن الحضارات القديمة الخاصة بالشعوب التى دانت بالإسلام ، والتى امتزجت وانصهرت فى الحضارة العربية . وبذلك خرج كتاب « الحضارة العربية » للأستاذ هل صورة شاملة واضحة الأضواء والألوان .

وقسم المؤلف كتابه إلى ستة فصول ، تناول فى أولها بلاد العرب قبل الإسلام ، وفى الثانى حياة الرسول الكريم ، وفى الثالث عصر الفتوح الاسلامية ، وفى الرابع الأمويين ، والخامس بغــــداد ، والسادس المغرب والأندلس . أى أن المؤلف إستخدم كلمة العرب بمعناها الواسع ، وهو أنها لاتقتصر على سكان بلاد العرب فحسب ، وإنما تشمل كل الشعوب التى حمل إليها العرب راية الإسلام ، والتى تكلمت العربية بعد ذلك ، واتخذتها أيضاً وسيلة للكتابة .

وهذا العرض الموجز للمحتويات السالفة يبين مقدار الفراغ الذى يسده ذلك المؤلَّف فى المكتبة العربية . إذ ينقذ هذا الكتاب القارىء من الضلال والتيه

بين المجلدات الضخمة عن الحضارة العربية ، على حين يزود المتخصص فى هـذه الحضارة بآراء قد تخفى عليه عند دراستها . ومن أمثلة ذلك ، الموضوع الذى كتبه عن الفن الإسلامى فى آخر الفصل الخاص بالمغرب والأندلس ، إذ اعتمد المؤلف فى هذا الموضوع على التاريخ والأدب والطابع القومى للعروبة ، فضلا عن مشاهداته الشخصية لهذه الآثار من دمشق إلى غرناطة . . ومن ثم جاءت نتيجـة بحثه فى الفن الإسلامى فريدة فى بابها ، لا يجد لها القارىء مثيـلا ، سواء من حيث البساطة أو الدقة ، فى كتب المختصين فى دراسة الفن الاسلامى .

وذاع الاهتمام بهذا الـكتاب ، حيث ترجمه من الألمانيه إلى الإنجليزية الأستاذ خدا بخش . وكان لهذه الترجمة الأخيرة أكبر الفضل فى تسهيل نقل الـكتاب بدوره إلى اللغة العربية لشدة اعتمادى عليها مع المتن الأصلى . وهنا لا بد من أن أعبر عن خالص شكرى للسيد الدكتور حسين مؤنس ، الذى بذل جهداً جهيداً فى مساعدتى على إتمام الترجمة ، وقيامه بشطر هام منها ، وهذا فضـلا عن مهمته فى المراجعة .

وأخيرا فإنه من يمن الطالع أن تصدر هذه الترجمه فى وقت أخذت فيه العروبة تعلن مرة أخرى عن شـبابها النضر ، وتظهر للملأ أنها مازالت بنجوة عن الشيخوخة والمشيب . ولا شك أن هذا الـكتاب يكشف لأبناء العروبة مراحل الطريق الطويل الذى سلكه أجدادهم وأسلافهم ليقدموا إليهم هذه الحضارة التى ينعمون بثمارها اليوم . وفى قراءة أخبار هذه الرحلة العربية الممتعة خير سبيل يهيء للعرب اليوم العمل السليم الذى يكفل لدوحة حضارتهم النضارة والازدهار ، حتى تظل فروعها باسقة تحمى بظلها المديد وحدة الشعوب العربية من هجير التفكك والانحلال .

القاهرة فى { ٢٣ ذى القعـدة سنة ١٣٧٥ هـ
الموافق أول يوليو سنة ١٩٥٦ م }

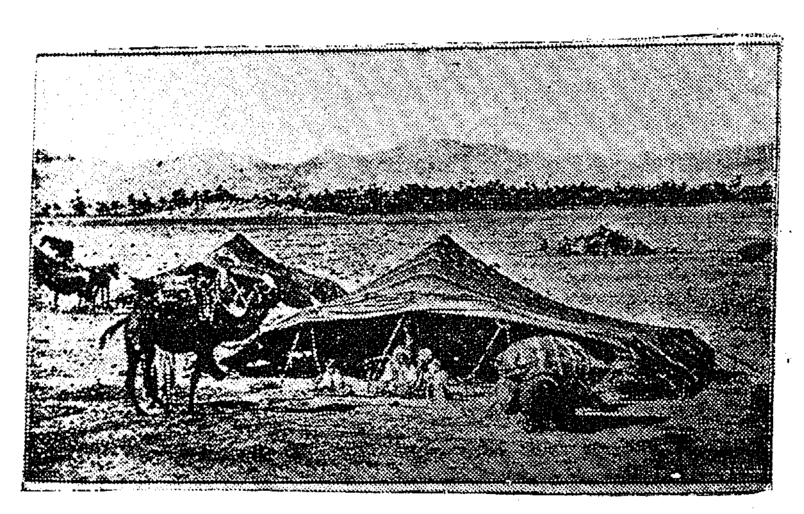
ابراهيم أحمد العدوى





شكل ١٥ — منظر الحمراء فى غرناطة





شكل ١ — مخيم بدوى

الفصل الأول

بلاد العرب قبل الإسلام

الحاجة أم الحضارات الإنسانية ، ذلك أن النفس البشرية فطرت على شوق لاحد له إلى الرفاهية والسيطرة ، والجمال والحق . وهذه الغايات هى الأهداف الأخيرة لكل طموح إنسانى ، والسعى إليها هو العلة الجوهرية فى ارتقاء الإنسانية . فالمثل الأعلى للانسان يكمن وراء عدد لا يحصى من الحاجات ، وكلما حصل على واحدة منها اتسع مجال طموحه إلى ما يليها . وعلى هذا النهج تسير الحضارات كلها ، الحاجات الجديدة تؤدى إلى وجود أهداف جديدة ؛ والكدح فى سبيل هذه الحاجات هو الطابع الذى يميز الحضارة ، والحصول عليها هو خلق للحضارة نفسها ، وإدخال أقوام آخرين فى مجالها هو نشر لهذه الحضارة .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نعالج حضارة العرب المبكرة ورسالتهم ، فلا نحسب الحضارة الإسلامية نتاجا محليا ، ولا ننظر أيضا إلى العرب على أنهم وحدهم حملوا لوائها ، وإنما الأمر الذى لا يتطرق إليه الشك ، هو أنه ظهرت بينهم فكرة وحدة الحضارة الإسلامية ، وكذلك فكرة جمع الشعوب الإسلامية كلها فى رحابها ، ثم ترامت بهم الآمال إلى ما وراء ذلك

وإذا نظرنا إلى بلاد العرب ، بحالتها الراهنة ، نجد الإيمان برسالتها الحضارية السالفة أمرا عسيرا . فسكان بلاد العرب أكثر الناس عزلة وأقلهم اتصالا بالجنس البشرى ، بعد أن انفصلوا عن العالم ، شأنهم فى ذلك شأن وطنهم الذى يحتمل أن يكون أقل أقطار الأرض ارتياداً . ثم إن أهل جوف بلاد العرب ينقسمون إلى قبائل متعادية ، تحيا حياة بدوية ، وتتبادل السلب ، لا تكاد تؤثر فيها تعاليم الإسلام ، كأنما هم قوم لا مطلب لهم ولا هدف ، كتب عليهم أن يسيروا على هذا الدرب إلى الأبد[1] .

وبالرغم من ذلك فهؤلاء العرب هم نفس الشعب الذى اكتسح أجداده

---

(١) يلاحظ أن هذا الكتاب نشر للمرة الثانية فى سنة ١٩١٩ ، أى أنه تناول بالوصف بلاد العرب فى الفترة التى كانت تابعة فيها للأتراك العثمانيين وإدارتهم السيئة . ثم إن هذه الفترة اتسمت كذلك باشتداد التنافس بين البيت السعودى فى نجد وبيت الشريف حسين فى الحجاز ، مما زاد فى الفوضى والتنازع القبلى فى البلاد . ولكن بلاد العرب دخلت بعد سنة ١٩١٩ ، فى دور هام من تاريخها بسبب ازدياد قوة البيت السعودى ، وانتصاره على آل بيت الرشيد فى سبتمبر سنة ١٩٢١ ، وفتحه الحجاز سنة ١٩٢٤ . إذ أدت هذه الفتوحات إلى تأسيس المملكة السعودية ، وانتشار سلطانها على شطر كبير من بلاد العرب ، وعودة النظام والطمأنينة والاستقرار إلى سائر السكان والقبائل .

وعقدت المملكة السعودية معاهدة مع اليمن سنة ١٩٣٤ كانت فاتحة عهد جديد فى تاريخ العرب وتجديد رسالتهم العالمية . وتنهض بلاد العرب اليوم لخدمة التضامن العربى ، ومؤازرة مصر فى جهادها لرفع شأن العروبة وإحياء ماضيها التليد . (المترجم)

كالطوفان العالم القديم فى القرن السابع الميلادى . ومن المقطوع به أن هذه المرة لم تكن الأولى التى ظهروا فيها على مسرح التاريخ العالمى ، إذ تكشف الأبحاث الحديثة عما كانت تتمتع به بلاد العرب من مركز ممتاز فى تاريخ الشرق الأدنى القديم . فيرى كثيرون أن بلاد العرب كانت الوطن الأصلى للساميين ، ثم هناك إعتقاد آخر شائع ، ولا يخلو فى الحقيقة من صواب ، يرى أن الطبقة الحاكمة فى بابل القديمة المتحضرة ، منذ أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد ، جاءت من بلاد العرب ، ونشأت من أصل سامى كانت له السيادة هناك . وتؤيد النقوش العديدة التى توجد على صخور بلاد العرب قيام حضارة وحكومة مستقرة فى العصور التى سبقت ظهور المسيحية ، لا تقل فى مظهرها عن أية حضارة وحكومة معاصرة لها إذ ذاك .

على أن الدهشة التى تثيرها هذه الحقائق سرعان ما تزول حينما ندرس عن كثب الخواص الطبيعية لجغرافية بلاد العرب . فشبه الجزيرة لا تنتظم صحراوات وسهوب فحسب ، بل تشمل كذلك بقاعا شديدة الخصوبة ، استثمرت منذ آلاف السنين ، وكثرت بها القرى والمدن الزاهرة ، التى سكنها أقوام مستقرون . وقامت هذه الجهات الخصبة ، بصفة خاصة ، على حدود شبه الجزيرة : فى الجنوب الغربى تقع اليمن ، التى عرفت فى العصور القديمة باسم « بلاد العرب السعيدة » وفى الجنوب، حضرموت ، موطن البخور ذات القيمة العالية فى قديم الزمن ، وفى الشرق أرض الحسا الساحلية الخصبة المطلة على الخليج الفارسى ، أما جهات الساحل الشرقى كله فكانت ، عدا بعض الأماكن القليلة ، أرضا زراعية جيدة . ولئن سادت جهات الساحل الغربى التلال الوعرة ، فإن بها مراع جيدة ، اتسمت بأنها أكثر جودة فى تلك الأيام السحيقة ، لأن عناية أهلها بها كانت أحسن . أما أرض نجد المرتفعة، التى تقع فى وسط بلاد العرب ، بجبالها المنعزلة ووديانها ذات الجداول الطويلة

وسهوبها التى تربى عليها أحسن الخيول العربية، وكذلك اليمامة التى تقع فى الجنوب الشرقى ، وتعتبر مخزن غلال بلاد العرب الوسطى — هذه الجهات كلها قامت بأود شعوب متحضرة ، لأن جودتها لم تقل فيما بين القرنين السادس والسابع بعد الميلاد عن أخصب أراضى أوربا وألمانيا فى ذلك الوقت ، إن لم تبزها فى بعض البقاع .

وإلى جانب هذه البقاع الخصبة وأهاليها المقيمين بها قامت مساحات من أرض مجدبة مقفرة ، لا تصلح للمعيشة بسبب انعدام الماء بها ، وهى تلك الجهات التى تخطر على الذهن عادة حينما نذكر بلاد العرب ، ونعنى بها الصحراء . ومن سوء الحظ أن هذه الصحارى تمتد فى بلاد العرب بحيث تفصل جهاتها الخصبة بعضها عن البعض الآخر ، انفصالا كاملا أو يكاد . ولذلك نجد أن أوسع الصحراوات العربية وأكثرها جفوة ، وهى الربع الخالى ، اضطرت سكانها إلى التجمع على الساحل الجنوبى الشرقى والجنوبى والغربى ، وحالت بينهم وبين أى اتصال بداخل بلاد العرب ، مما ترتب عليه أن أهالى الجنوب الشرقى فى عمان ، والجنوب فى مهرا قد ساروا فى طريق قائم بذاته ، دون أن تؤثر فيهم حوادث البلاد الداخلية إلا قليلا .

ويعزى إلى المناطق الصحراوية فى الشرق ، وإلى تهامه — وهى الشريط الساحلى ذو الرمال المحرقة — السبب فى حياة العزلة التى قضاها ذلك القسم الجنوبى الغربى من بلاد العرب بعيدا عن باقى سكان شبه الجزيرة ، زهاء بضع آلاف من السنين . غير أن حضارة هذا القسم وسيطرته قد امتدتا فى وقت من الزمن امتدادا يدفعنا إلى أن نقف لحظة عند هذا المهد القديم لحضارة العرب . فالنقوش العديدة التى وجدت خلال السبعين سنة الماضية على أطلال بلاد العرب الجنوبية ، والتى فحصت مرارا — وإن لم تدرس تماما بعد — تخبرنا عن قيام مملكتين هناك فيما قبل الميلاد . وكان الرأى السائد هو أن هاتين المملكتين قد عاشتا جنبا إلى جنب

حتى آخر العصر اليونانى ، ولكن هذا الرأى لم يعد يقوى على مواجهة أبحاث إدوارد جلاسر التى أثبتت أن دولة سبأ قد قضت على دولة معين وضمتها إليها .

وإذا كانت الآراء لا تزال تتضارب حول زمن هاتين المملكتين إلا أنه ليس من المغالاة أن نرجع مملكة معين إلى الألف الثانية قبل الميلاد ، إذ ظلت أحوال المعيشة هناك آلافا من السنين دون أن يطرأ عليها أى تغيير . ثم إن أقدم الروايات عن هذه المملكة تشير إلى منتجاتها المحلية ، مثل البخور والمر الكاوى التى كان لها قيمة عظيمة فى مصر . وتشير هذه الروايات كذلك إلى موقعها الممتاز على البحر ، مما جعلها منذ أقدم العصور مركزاً تجارياً هاماً . ونحن نعرف أن دائرة نفوذ هذه المملكة امتد إلى غزة على البحر الأبيض المتوسط ، وأنه قامت على طول الطريق الممتد إلى هذا البحر المحطات التجارية ومخازن الأسلحة والمواقع الحصينة . ولا تختلف مملكة سبأ عن معين فى هذا الصدد ، عدا أن سبأ فقط تبوأت مركزا ساميا فى وقت كان فيه مركز القسم الجنوبى لبلاد العرب مزعزعا وغير مستقر فى عالم التجارة . ذلك أن نظام الملاحة الذى أدخله البطالمة فى البحر الأحمر لم يؤثر إلا قليلا فى مصالح السبئيين التجارية فى الشمال ، حيث ظلوا يمدون جميع المعابد المصرية الكبيرة بالبخور كما كان شأنهم من قبل ، على نحو ما يثبت ذلك نقش يرجع إلى زمن البطالمة أنفسهم . كذلك كانت ثروة سبأ ذات شهرة عالمية ؛ واستطاعت أن تواجه بشجاعة ونجاح أيليوس جالوس قائد الإمبراطور الرومانى أوغسطس ، إذ اضطر هذا القائد إلى الانسحاب والعودة برغم ما أحرزه من نصر أولى ، ووصوله إلى أسوار مأرب المنيعة [1] .

(١) اهتمت الدولة الرومانية الكبرى بتجارة البحر الأحمر بعد فتحها لمصر . إذ وجد الرومان أن التجارة المصرية غير حرة بسبب احتكار عرب الجنوب للمتاجر الشرقية الواردة إلى بلادهم فى طريقها إلى البحر الأحمر . فبعث إمبراطور الرومان فى سنة ٢٤ ق . م حملة تحت قيادة =

غير أن سبأ أخذت تفقد تدريجياً مركزها العظيم . ولا يمكننا تعليل سبب انحلالها وسقوطها ، إذ ينسب العرب ذلك إلى تصدع سد مأرب ، على حين يعزى السبب أيضاً إلى القوات الأجنبية التي اتجهت إلى الركن الجنوبى الغربى من بلاد العرب ، حتى بعد انحلاله ، لأنه أكثر الجهات اتصالا بالعالم الخارجى . فهناك اشتبكت أعظم القوى المتحضرة فى ذلك الوقت مع بعضها بعضاً ، وحاول كل منهما الاستيلاء على تلك النواحى . وكان الأحباش ، الذين اعتنقوا المسيحية منذ القرن الرابع الميلادى ، أول من حكم هذه الجهات بفضل معونة وتعضيد الامبراطورية البيزنطية . ولكن العرب الوثنيين واليهود الذين كانوا كثيرى العدد جداً هناك تكتلوا معاً ضد هذه السيادة الحبشية ، ودخلت تلك الجهات سنة ٥٢٠ م تحت حكم ملك يهودى يسمى أبا نواس . ولما كان حكام الحبشة المسيحيون قد حالفوا البيزنطيين ، فإن الحكومة العربية اليهودية طلبت حماية الفرس ، وهم القوة الوثنية الكبرى فى ذلك الوقت . على أن المسيحية خرجت منتصرة من الحرب التى نشبت حينئذ ، بفضل العون الذى حملته إليها سفن الدولة الرومانية الشرقية (أى البيزنطية) ، وغدت بلاد العرب الجنوبية من جديد ولاية حبشية . غير أن الفرس لم يغضوا النظر عن هذا الشطر الغنى من بلاد العرب ، وأحسوا سنة ٥٧٠ م أن الوقت حان للهجوم على اليمن . وانضم إلى الجيش الفارسى حشود غفيرة من العرب الحانقين على الحكومة المسيحية . وبذلك طرد الأحباش للمرة الثانية من جنوب بلاد العرب ، التى تولى عليها

= جايوس جالوس والى مصر إذ ذاك لإخضاع عرب الجنوب . وأبحر هذا القائد الرومانى من ميناء أرسينوى (القلزم العربية ، أو السويس الحالية) . ولكنه فضل النزول فى ميناء Leuco - Come (الحوراء) فى الحجاز ، وذلك بدلا من الاتجاه مباشرة إلى اليمن . ولذلك لقى القائد الرومانى متاعب شديدة فى الزحف برا إلى اليمن ، مما أنهك قواه واضطره إلى العودة فاشلا . أنظر العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ، ص ١ — ١٤ . (المترجم)

حاكم فارسى ، طبق عليها النظام الفارسى فى جباية الضرائب . ولما كان الفرس أكثر انصرافاً إلى التمتع بثروة البلاد منهم إلى إقامة حكم جائر فقد رضى السكان عن النظام الجديد ، وأخذ شعورهم القومى بالتالى فى الضعف والتلاشى .

وهكذا كان جنوب بلاد العرب البوابة التى انثالت منها قوتا العالم — وهما الامبراطورية البيزنطية والفارسية — إلى شبه الجزيرة العربية . ذلك أن بادية الشام وقفت سداً فى طريق هاتين القوتين ، على حين لا يوجد فى الجنوب مثل هـذا العائق الطبيعى . ولـكن برغم وقوع ذلك الإقليم بين هذين التيارين القويين ، وبرغم قدرة العرب الجنوبيين على تمثل الثقافات ، فإن تلك القوى لم تنجح فى فرض طابعها عليهم ، وكل ما نجده من الحضارة هناك فإنما هى حضارة محلية نبتت فى أرض البلاد بعيدة عن أية مؤثرات .

ومما يؤسف له أن معلوماتنا عن هـذه الحضـارة لا يتعدى شذرات عديدة ، ولـكن إذا كان هـــذا القدر من المعرفة يؤكد قيام حضارة هناك ، فإن علينا أن نتطلع إلى الأبحاث المقبلة ، التى نأمل أن تلقى لنا ضوءا على هـذه الحضارة ، وتزودنا بمعلومات عن نشأتها ونموها ومدى انتشارها .

وتشهد الأدلة القديمة على أن العرب — الذين نقابلهم لأول مرة فى التاريخ — لم يكونوا بأية حال من الأحوال شعباً همجياً ، إذ عاشوا فى ظل نظام قبلى ، يعتمد فيه الفرد على حماية جماعته ، ثم أدى تجمع عدة قبائل حول واحدة منها ، كانت غالباً أقواها جميعاً ، إلى قيام أقدم نظام لتـكوين الدول . على أن هـذه الظاهرة لم يترتب عليها ضياع الشعور القبلى ، برغم تمتع الملك فى هذا النظام بالمقام الأول . والضوء الذى يلقيه ما بين أيدينا من معلومات عن النمو التدريجى للسلطة الملـكية ضوء خافت غير مستقر . ولـكن ما لدينا من معلومات يؤيد أن الملك تمتع فى ذلك

الوقت بهيبة الكاهن ، وأن نفوذه اعتمد فى أول الأمر على شهرته ومواهبه الخاصة .

ولم يظهر الملك فى صورة سيد إقطاعى إلا فى أواخر العصر السبئى ، إذ نلاحظ فى ذلك الوقت احتكار الملوك للضياع الواسعة يمنحونها إقطاعات ، ويصدرون عملات ذهبية وفضية ونحاسية ، على إحدى جوانبها صورهم ، وعلى الجانب الآخر أشكال مختلفة تمثل بوما أو رؤوس ثيران . . الخ . وهذه العملة نفسها، التى وصل إلينا الكثير من نماذجها ، تكشف لنا مرة أخرى عن جهلنا بتطور هذه الحضارة . فهى من ناحية تدل على أن عرب الجنوب أخذوا سكها عن الإغريق وعن النماذج الرومانية فيما بعد ، على حين تدل صور الملوك التى تحملها هذه القطع وخواصها ، والذوق الفنى الذى يميز تصميمها على أنه كان لأولئك العرب من ناحية أخرى تطور خاص بهم ، برغم ضيق حدوده . فتصور هذه العملة هيئات أولئك الملوك العرب القدامى ، لهم أول الأمر شعر طويل سبط ، ثم قصروا ذلك الشعر حتى أصبح وفرات ، وأخيراً جعلوه قصيراً أشبه بشعر الرومان . ويجب ألا نغفل كذلك الأطوار التى مرت بها المهارة الفنية فى سك العملة ، إذ تمتاز العملة القديمة برسومها المتقنة الصقل ، حتى تكاد تصل إلى مستوى العملة السالفة ، على حين تكشف العملة الخاصة بالفترة الواقعة بين عهدى العملتين السابقتين عن نقص شديد فى المقدرة الفنية والمهارة . ومهما يكن من أمر ذلك فإن فنّ سك العملة ظل فى جميع العهود بعيداً عن أن يبلغ درجة الكمال .

وإذا كانت العملة تلقى ضوءا خافتا على تطور النظام الملكى ، فإن ناحية أخرى تشع ضوءا مشابها على الناحية الدينية ، إذ تدل أسماء الآلهة العديدة المدونة على نقوش بلاد العرب الجنوبية على المكانة الهامة التى حظيت بها الديانة هناك . على أننا ، فى حقيقة الأمر ، لا نعرف شيئا مقطوعا به عن المظهر العام أو الصفات

الجوهرية لهذه الآلهة ، وكل ما نعرفه هو أنها صنعت فحسب من الحجر . ويتضح من نصوص الأدعية العديدة ، والقسم ، وعبارات الشكر ، أن عرب الجنوب كانوا قليلي الايمان بالحياة الأخرى والسعادة الروحية . فإذا نحن قرأنا عند بلني أن المعابد فى جنوب العرب كانت لا تحصى كثرة ، فإنما يدل ذلك على شدة سلطان رجال الدين أو الميول الفنية فى نوع خاص ، أكثر مما يدل على شدة التقوى الدينية عند عرب الجنوب .

ونجد فى الجنوب الغربى من بلاد العرب أقدم الآثار الفنية ، حيث زودت هـذه الجهات المبانى بحاجاتها من الجرانيت والرخام والمرمر . ثم إن وقوع هذه البلاد قرب البدو وإغاراتهم المخربة ، حفز الناس على ضرورة بناء مساكنهم بناء حصينا . وأصبحت بلاد العرب الجنوبية بذلك أرض المعاقل والحصون ، التى ما زالت غنية بأطلالها إلى الآن . وإن حصن غمدان فى صنعاء الذى يبلغ ارتفاعه عشرين طابقا، ومعبد مأرب بجدرانه التى بلغ ارتفاعها تسعة أمتار ونصف متر وتحيط برابية طبيعية ، وكذلك سد مأرب العظيم ، الذى لا تزال تشاهد بقاياه ، كل ذلك ينهض دليلا على علو الفن المعمارى وتطوره عند عرب الجنوب .

وإذا كانت هذه المبانى آية على التناسق والضخامة ، فإن هناك آثار أخرى مختلفة عنها ، تكشف عن ذوق عرب الجنوب فى النقش والتصوير . وترجع أقدم النقوش الموجودة على صخور بلاد العرب الجنوبية إلى القرن العاشر قبل الميلاد ، وهى تدهشنا بتناسق كتاباتها ووضوحها ، فضلا عن أن كثيرا منها زين بحليات فنية عديدة (أنظر شكل ٢) . ولذا نميل إلى تصديق ما رواه الهمدانى ، الجغرافى العربى ، عن زخارف واجهات المعابد والحصون فى جنوب بلاد العرب . إذ يقول الهمدانى : ترى صورا من جميع الأشكال منقوشة عليها، من حيوانات وحشية ومفترسة .... ونسور تخفق بأجنحتها ، وعقبان تفترس أرانب برية.... وقطعان

من الغزال تسرع إلى شباك حتفها ، وكلاب مرخية آذانها ، بعضها مقيد والآخر طليق ، ورجل يرفع سوطه بين الخيول . »



شكل ٢ — لوحة جنوبية

على أننا لا نجد فى اليمن وحضرموت أحسن النماذج المعمارية لعرب الجنوب ، وإنما على حافة بادية الشام فى شمال بلاد العرب ، ووسط سلسلة جبال حوران ،

حيث هاجر إلى هناك بعض عرب الجنوب بسبب العوامل الاقتصادية . إذ ظهرت في بلاد العرب الشمالية، منذ أزمنة سحيقة، دول لا نكاد نعرف عنها شيئا غير أسمائها القديمة ، وهي مصر ومدين وملوخ . ويبدو أن هذه الدول قد اختفت قبل ظهور المسيح بسبب تطاحنها مع بعضها بعضا ، وقامت مكانها مملكتان أخريتان ، تمتعتا بمركز عظيم ، باعتبارهما مركزين تجاريين ، وهما مملكة الأنباط التي امتدت حدودها فيما بين عامي ٢٠٠ ، ١٠٠ قبل الميلاد إلى جوف بلاد العرب ، ومملكة بالميرا (تدمر) التي خلفت الأنباط ، وظلت قائمة حتى قضى عليها الإمبراطور أورليان بسنة ٢٧١ م . وعندما نسمع عن دولة عربية خالصة ، حكمها ملوك لحيان ، أو عندما يتحدث نقش يرجع إلى سنة ٣٢٨ م عن امرئ القيس على أنه شخص « لبس تاجا وحكم كلا من أسد ونزار » فيجب ألا نتخيل العرب في ذلك الوقت قد انتظموا في دولة حقيقية ، إذ لم يتعدوا في ذلك الوقت مجرد شعب مقبل على الاتصال بحضارات الشمال الشرقي والشمال الغربي ، يقلد نماذجها وينتحل ألقابها .

ويمكن أن نعرف طبيعة النظام الذي ساد هذه الممالك من دولتين ظهرتا قبل الإسلام بوقت قصير ، وقامتا على حدود بلاد العرب الشمالية ، المتاخمة لأطراف إمبراطوريتي الفرس والبيزنطيين . فكان يطلق على الشريط الأرضي الضيق الممتد قباله الأمبراطورية الفارسية اسم مملكة الحيرة ، التي صورتها الأشعار والأساطير بألوان زاهية . على أن حضارة هذه الدولة لم تكن عربية ، وإنما حضارة مأخوذة عن الفرس . أما قبالة الأمبراطورية البيزنطية فقد قامت دولة الغساسنة العربية المسيحية . ولم يكن لهذه الدولة عاصمة ثابته ، وإنما تركز نشاطها في معسكر دائم . وأطلق البيزنطيون على رؤساء تلك الدولة لقب فيلارخ (Phylarch) على حين نعتهم العرب بالملوك .

ومهما يكن من مظاهر النقص فى نظم هاتين الدولتين ، فإنه لا يمكن إغفال أهميتهما فى تاريخ بلاد العرب ، إذ كانتا أشبه بأجيرتين عند امبراطوريتى الفرس والبيزنطيين اللتين قامتا على حدودها ، وساهمتا بقسط وافر فى الحروب المستمرة بينهما . وبذلك عرفت هاتان الدولتان من تبادل النصر فى الحروب مواطن الضعف عند جيرانهم الأقوياء ، كما أدركتا ثراء مدنهم وعظمتها . وكانت الثروة تلعب فى الحقيقة دوْرا كبيرا فى حياة العرب ، حتى غدت المهمة الرئيسية لهاتين الدولتين الأجيرتين هو إيقاف تيار الجحافل العربية من أن تتدفق يوما ما من داخل الجزيرة العربية .

وحدثت إحدى هذه المحاولات زمن الجاهلية ، ففى النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى نجحت قبيلة كندة — التى قامت فى جوف بلاد العرب — فى الوصول إلى مرتبة الرئاسة على سائر القبائل ، وكونت منها حلفا تحت لواء ملوكها . وفى سنة ٤٨٠ م شنّ أحد أولئك الملوك ، وهو حجر ، هجوما فاشلا على مملكة الحيرة . ولكن الحارث عوض هذا الفشل سنة ٤٩٦ م عندما أغار على فلسطين ، وحصل على مبلغ كبير من الامبراطور البيزنطى أنسطاسى ، الذى دفعه ليتخلص من وجود العرب فى فلسطين . وشجع ذلك النصر الحارث نفسه على التفكير فى الإستيلاء على الحيرة عنوة ، ولكن لم تكن لديه القدرة الكافية لتحقيق ذلك الغرض . ثم سرعان ما تخلى عنه الحظ ، إذ هجره أهل كندة ، ولقى حتفه سنة ٥٢٩م على يد أحد أعدائه . وانفرط بذلك حلف كندة ، وغدت مهمة خلفاء الحارث محاولة استعادة تاج ملكهم الضائع .

وهكذا غدا جوف بلاد العرب فى أوائل القرن السابع الميلادى لا ينتظم دولة موحدة ، حتى من الناحية الشكلية . ولكن مما يستوقف النظر بصورة خاصة ، أن ذلك القسم نفسه ، الذى لم يتأثر البتة بالحضارات المجاورة له ، صار مركز انطلاق

الحركة الإسلامية الكبرى . والمعروف أن الدافع الحقيقى لهذه الحركة لم يكن دينيا وإنما إقتصاديا ، وإن كانت تفاصيل ذلك لاتزال غامضة غير معروفة . على أن هناك نظرية مقبولة تذهب إلى أن السبب فى ميل الشعب العربى إلى الهجرة هو جفاف بلادهم . وقد اقترن هذا الجفاف بظهور الإسلام ، مما أدى إلى ذلك الانقلاب فى التاريخ العالمى[1] . وعلى أساس النظرية السالفة يمكن ، طبقا لما لدينا من معلومات، إيجاز الأحوال الداخلية فى بلاد العرب ، التى مهدت السبيل للإسلام فيما يلى : —

يتفق مع طبيعة بلاد العرب الثنائية المظهر إنقسام سكانها إلى قسمين ، حضر وبدو . على أن التباين بينهما غير شديد ، إذ تنم حياة الحضر ، فى حالات عديدة، عن نشأتهم الرعوية ، حيث يشتركون مع البدو فى طباعهم المعروفة . ومن ذلك أن المزارعين المستقرين وأهل الحضر أيضاً لم يتخلوا تماما عن عادة التجوال والأرتحال من مكان إلى آخر تمشيا مع اختلاف الفصول . ثم إن البدو من ناحية أخرى لم يكونوا مجرد أفاقين ، يجوبون الأرض حبا فى محض التجوال والأرتحال ، وإنما كانوا يتخيرون البقاع التى ينتجعونها بقطعانهم على أساس خصوبتها ووفق أوقات معينة من السنة . وإذا وجد أولئك البدو أرضا خصبة ، صالحة للزراعة وسط المروج الكبيرة ، استقروا فيها ، على حين إذا وجدت عين ماء يتلاقى عندها الرعاة ورجال القوافل قامت إحدى القرى ، وربما إحدى المدن . وعلى ذلك فإنه قامت فى بلاد العرب الوسطى رغم إفتقارها إلى نظام سياسى مدن كبرى وقرى

---

(١) هذا رأى ردده المستشرقون ، مستهدفين التجنى على الدين الإسلامى . وقد أصبح هذا الرأى اليوم ضعيفا أمام الدراسات الإسلامية الحديثة ، التى أظهرت قوة الدين الإسلامى ، وأنه دين للناس كافة ، حمل العرب لواءه إلى العالم المجاور لهم فى القرن السابع الميلادى . (المترجم)

واسعة ظل سكانها يحتفظون بروابطهم القبلية البدوية ، وأقاموا على الولاء لعرفهم البدوى قليلا أو كثيرا .

وكانت نظم هؤلاء البدو بسيطة ، أولها وأهمها حق البدوى فى الحرية الشخصية، برغم صلة القربى التى ربطت الفرد بأسرته وقبيلة وجنسه من عرب الجنوب أو الشمال . وثانى هذه النظم هو حق البدوى فى أن يغير على القبائل المعادية ، وينهب ما يستطيع نهبة منها ، ذلك أن تنازع البقاء دار فى جزيرة العرب ، منذ القدم ، حول الماء والمرعى . وأدى ذلك التناحر إلى القضاء على الشعور بالوحدة القومية ، وغرس فى نفوس العرب شعور الأنانية (Particularism) ، الذى تأصل فيها . فأصبح العربى ينظر إلى قبيلته على أنها وطنه وإلى القبائل الأخرى على أنها أعداء ، يحل له نهبها والأغارة عليها . ولم يكن العربى يحرص فى هذه الأغارات — التى لم يكن منها مناص — إلا على شيء واحد ، وهو طلب الدم ، لأن العرب لم يرضوا إلا نادرا بأخذ دية المقتول، وهى مائة ناقة. وامتد سفك الدماء كذلك إلى أفراد القبيلة التى يمت إليها المعتدى عندما استبد الغضب بالنفوس . ولكن إذا كان الصراع من أجل الحياة قد فرق البدو إلى شيع صغيرة متناحرة ، فإن نضالهم المشترك ضد الطبيعة المهلكة القاسية قد قرب بين بعضهم بعضا ، وأدى إلى اعتراف العرب جميعا بواجب واحد ، غالوا فى المحافظة عليه ، واعتبروه فضيلة كبرى، ألا وهو واجب الضيافة .

وإذا كانت الدول القديمة التى ظهرت فى شمال بلاد العرب وجنوبها قد ارتبطت فى قيامها وانحلالها بازدهار التجارة أو كسادها ، فإن التجارة كذلك غدت العمود الفقرى للحضارة فى وسط بلاد العرب . فكان عند العرب شغف عظيم بالعطور التى استوردوها بكميات كبيرة ، ولا سيما المسك ، من الهند . ثم أن السيوف

الجيدة جلبت من الهند كذلك عن طريق عدن ، على حين جاء العبيد والخمور من الحبشة عن طريق البحر . وإلى جانب هذه المتاجر المستوردة ، التي انتشرت في جميع أنحاء بلاد العرب ، راجت التجارة في السلع المحلية . فكان جنوب بلاد العرب ينتج أحسن الجلود والملبوسات ، على حين يزود الشمال بلاد العرب بالقمح والأسلحة ، أما الحيرة فقد ازدهرت فيها صناعة السروج . وليس ثمة شك في أن هذه الصناعات كلها كانت متقدمة ومتداولة .

ولكن كيف نشط هذا التبادل التجارى وسط الإغارات والأحقاد ؟ ، وكيف ازدهرت التجارة كذلك ، إذا كانت جغرافية بلاد العرب ، وامتداد الصحراء بين أراضيها الزراعية يجعل الاتصال صعبا ، إن لم يكن مستحيلا ؟ . لقد اهتدى العرب منذ القدم إلى علاج لاتقاء الأخطار التى تنجم عن اختلال الأمن ، وذلك بتخصيص أشهر حرم . فكانت تباح ممارسة الضغائن الوحشية في ثمانية أشهر ، على حين حددت أربعة أشهر يسودها السلام التام ، ويقف فيها الإعتداء . وجاءت ثلاثة من هذه الشهور على التوالى ، وهى الشهر الحادى عشر والثانى عشر ، ثم الشهر الأول من السنة التالية ، على حين يحل الشهر الرابع في منتصف السنة ، ويسمى رجب الفرد ، لأن الحروب تقف فيه دفعه واحـــدة .

واستغل العرب الأشهر الثلاثة لأداء واجباتهم الدينية ، حيث دأبوا على الذهاب من أجل ذلك إلى الحجاز ، الواقع في الجزء الأوسط من غرب الجزيرة . ولم تكن بلاد الحجاز نفسها أرضا غنية ، وإنما إمتازت بأن الطرق إليها ميسرة سواء من الشمال أو الجنوب أو الغرب ، مما جعل العرب يقبلون عليها لأداء فروضهم الدينية . على أن ذلك لا يعنى أن البدو لم يعرفوا الأشياء المقدسة إلا في الحجاز ،

إذ كانت فى أراضى كل قبيلة عدة أحجار أو ينابيع مقدسة تكفى لإشباع عواطف أهلها الدينية البسيطة . ولكن لما كانت الحجاز ، منذ أقدم الأزمنه ، مركزا تلتقى فيه كثير من القبائل ، فإن العرب جميعا قدّسوا أصنامها إلى جانب أصنامهم المحلية .

ولعل ذلك هو السبب الذى نال من أجله ذلك البناء المكعب الشكل ، — وهو الكعبة — الذى وضع فى أحد أركانه حجر أسود من أحجار الشهب ، شهرة إزدادت شيئا فشيئا . كما ذاع تقدير الناس لطقوسه ، وسائر المراسيم المقدسة المرتبطة به . وانتهى الأمر بأن صار قسم كبير من أهل بلاد العرب يعتبر الرسوم المتعلقة بهذا البيت ، وهى العمرة إلى مكة ، واجبا مقدسا . فكانت تقدم الذبائح لبعض الأصنام فى وادى عرفه على مسافة بضعة أميال من الشمال الشرقى لمكه ، وفى المزدلفة على مسيرة ساعتين من عرفة ، وفى منى بعد مسيرة ساعتين أخريتين من المكان السابق . ثم غدت عبادة هذه الأصنام والحج إليها ، هى العبادة السائدة فى وسط بلاد العرب . فقامت آلاف عديدة من العرب بالحج والعمرة فى الأشهر الحرم ، مما جعل الحجاز أيام الجاهلية مركز حياة العرب الدينية .

ومثلما يحدث فى كل مكان يجتمع فيه عدد كبير من الناس ، إزدهرت التجارة فى الحجاز . وطبعى صاحب هذه التجارة أعظم مظاهر العمرة والحج بهجة ، وهو انعقاد الأسواق السنوية العامرة على مقربة من الحرم المقدس . فكانت الحياة العربية تصل فيها إلى أوج نشاطها وعظمتها ، ذلك أن العرب القدامى صنعوا نوعاً من النبيذ ، من التمر والعسل والقمح والشعير ، على حين حمل اليهود والمسيحيون إلى هذه الأسواق نبيذ العنب . وهناك فى حانات الشراب جلس أبناء الصحراء يرتشفون النبيذ من أقداحهم وأكوابهم ، مصغين إلى نغمات القيان المرحة اللاتى حضرن لمضاعفة سرورهم .

ولعب البيطار ، وهو رجل جمع فى عمله بين الحدادة وتطبيب الخيل ، دوراً هاماً إلى جانب التجار وأرباب المهن ، الذين شيدوا لهم حوانيت خاصة . وتجلت فى هذه الاجتماعات أروع قرائح المتنافسين الذين سموا وراء الشهرة ، حيث أقبل الشعراء بقصائدهم إلى هـذه الأسواق . وظهر خـلال القرن الذى سبق الدعوة الإسلامية نفسها كثير من الشعراء الملهمين ، على حين عرض الشباب الطموح أعماله ليصدر الرؤساء أحكامهم عليها . وكذلك دأب كل راغب فى الشهرة فى بلاد العرب على أن يأتى بخير ما عنـده فى أسواق الحجاز ، وهى عكاظ وذو المجاز ومكة .

وبانتهاء الأسواق تفقد ذوالمجازوعكاظ أهميتهما ، ويصبحان خاويين ، وذلك على حين تطورت مكة وصارت مدينة هامة . ولا سيما بعد سقوط البيت الحميرى فى جنوب بلاد العرب ، حيث غدت أعظم مدينـة زاهرة فى بلاد العرب . على أن مكة لم تنل هذه الأهمية المبكرة بسبب بيتها المقـدس ، لأنه كان لـكل سوق معبده الخاص ، كما أنها لم تستـمد هذه الأهمية من موسمها التجارى لأن الأماكن الأخرى شاهدت مواسم خاصة بها أيضا ، وفضلا عن ذلك لم تشتهر مكة نتيجة موقعها الجغرافى . لأنها تقع فى وادى بغير ذى زرع . فعلام إذن يعزى إرتقاء مكة ؟ .

لقد أثبت يوليوس فلهاوزن بشكل جازم أن ذلك الارتقاء ينسب إلى تفوق سكان مكة من قريش . ذلك أن نهضة أهل مكة الثقافية تأثرت بالعلاقات الطيبة مع الساميين الشماليـين ، ولا سيما العنصر اليهودى . فالمقطوع به أن التجارة التى امتدت إلى سوريا والحيرة وجنوب بلاد العرب قد حملت إليهم مؤثرات ومطامح جديدة . ولذا كان من بين الرجال الذين عرفوا القراءة والـكتابة قبل الإسلام عدد كبير نسبيا من أهل مكة . وربما ترددنا دون جدال فى تصديق تلك الأخبار

إذا لم نعرف أن زوجة الرسول الأولى — والتى تثقفت زمن الجاهلية — اشتغلت بتجارة واسعة فى جميع أنحاء بلاد العرب .

وأخبرنا فلهاوزن ، أن أهل مكة ، برغم افتقارهم إلى نظام حكومى ، تحلوا بروح تعاونية ، ونظر ثاقب فى الأمور التى تهم الصالح العام ، وذلك بصورة لا نجد لها مثيلا فى أى مكان آخر من بلاد العرب . فبالرغم من أن كل أسرة كانت فى جوهرها حكومة قائمة بنفسها ، فإنها وضعت مصالح المدينة أولا وقبل كل شىء . أى أنه قام هناك سلطان يدل على وجود نظام صالح لإدارة المدينة ، وهذا النظام كان حدثا هاما فى بلاد العرب برغم بساطته وضيق حدوده .

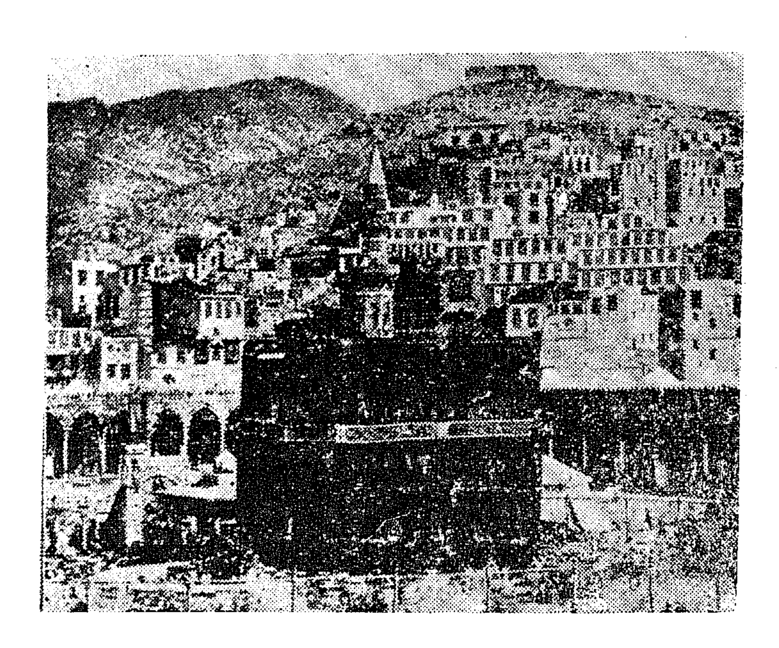
وهكذا يمكن أن نتبين تماما ، فى مكة وفى مواسم الحجاز ، فى القرن السادس وأوائل القرن السابع ، ما كانت تصبو إليه نفس العربى الحر ، وندرك كنه حضارته . فالشىء الذى افتقر إليه العربى هو الشعور بالوحدة القومية ، إذ لم يخطر بخلده أن الطاعة أمر قد يفيد وأنها فضيلة . وإذا كان للعرب شيوخ قبائل أظهروا لهم التقدير والاحترام ، فإنه لم يكن لأى شيخ الحق فى أن يأمر ، كما لم يكن مفروضا على أى شخص أن يطيع . وهذان هما العيبان البارزان عند العرب ، وفيما عدا ذلك ظلوا شعبا بدائيا ، وإن لم يخل من القدرة على تقبل الأفكار .

أما مبانى مكة ، بما فيها دار الندوة والكعبة ، فلا تدل على أية مهارة عالية ، أو خبرة بفن العمارة . وعند ما نسمع أن محمدا طهر الكعبة من الأوثان ، وأنه أزال ضمن ما أزاله من الأصنام تمثال حمامة ، فإننا نجد تصوراتنا تتلاشى عندما نقرأ بعد ذلك أن هذه التماثيل لم تكن بصفة خاصة إلا من خشب النخل . على أن ذوق العرب الفنى لم يتجل فى ذلك الحين إلا فى الكلام والشعر . فقد ظهر الشعراء الذين أنشدوا أشعارهم ، وهى القصائد ، فى بلاط الحيرة وفى سوق عكاظ

وفى كل مجتمع أغدق العطايا . وتشابهت هذه القصائد جميعها فى طابعها، إذ اشتملت على الغزل ، ووصف للجمل أو الحصان ، وذكر لرحلة أو صيد ، وأحيانا على تصوير لجلسة شراب . وإذا كنا لا نلمس فى هذا الحشد من القصائد إلا لمحات قصيرة من الشعر الواقعى ، فإننا لا نتردد فى إبداء إعجابنا بما فيها من دقة فى التعبير ، ودقة لا تجارى أيضاً فى وصف الطبيعة . وكذلك لا يمكن أن نخفى إعجابنا بقدرتهم الفذة على استغلال المادة التى وقعت تحت تصرفهم إستغلالا ممتازا . ومما يشهد لهم بذلك أنهم وجدوا عددا كبيرا من المستمعين ، ولقوا تقديرا عظيما ، حتى غدا ذلك المحصول من الشعر فى القرن السادس الميلادى ، وهو القرن الأخير من عصر الجاهلية ، ينبض بالقوة والجمال الذين لم يتحققا مرة أخرى . ثم إنه عاصر هذا الازدهار فى الشعر تطور فى الخط العربى وتهذيبه ، مما يحمل على الاعتقاد بقيام نهضة ثقافية لا يمكن أن نصفها وصفا شاملا . غير أن هذه الحقائق كشفت عن أناس فى بلاد العرب ، ولا سيما فى مكة ، كانوا ساخطين على الديانة القائمة بينهم ، وتلمسوا الهداية فى المسيحية واليهودية ، أو انتقوا نوعا من العبادة كان جديدا وتقدميا فى نفس الوقت . ولذلك لم يكن غريبا أن يعد محمد عندما نادى بدعوته ، أحد أولئك الباحثين عن الحقيقة .

وكانت أحوال بلاد العرب الداخلية فى القرنين السادس والسابع تشبه إلى حد كبير أحوال جنوب شرق ألمانيا فى ذلك الوقت . إذ تجولت الارساليات التبشيرية الفرنجية فى البلاد طوال القرن السابع ، تعمل جاهدة على نشر المسيحية. على أن نجاحها كان ضئيلا ، ولم تكن جهودها أحسن حالا من مجهود الحنيفية ، وهم الباحثون عن الحقيقة فى مكة ، الذين لم تجد تعاليمهم شيئا أمام محافظة العرب الجامدة .

ولكن فى الوقت الذى ثبّتت فيه المسيحية قدمها فى جنوب ألمانيا ، كان وجه العالم أجمع قد تغير . إذ قبل أن يتمكن الأسقف روبرخت « Rupprecht » (سنة ٦٩٦) من تثبيت دعائم المسيحية فى باڤاريا ، كانت الوثنية فى الشرق قد تمزقت أوصالها فى إمبراطورية الفرس ، على حين فقدت الامبراطورية البيزنطية ، وهى أكبر قوة مسيحية إذ ذاك ، أحسن ولاياتها ، وهى سوريا ومصر . ثم أقام أبناء الصحراء ملكهم فى قلب مراكز الحضارة الزاهرة ، فى المدائن وفى دمشق والاسكندرية ، وحكموا هناك ممثلين ديانة جديدة كل الجدة ، وهى الإسلام .



شكل ٣ - الكعبة

الفصل الثانى

محمد

تتسم الأديان جميعها بأنها تفرض طابعها على التاريخ الانسانى ، وأن المؤسسين والأنبياء والرسل يساهمون بنصيب معين فى حضارة عصرهم وشعبهم . ولكن لم تقم مطلقا أية ديانة بمثل ما أحدثه الإسلام فى صورة سريعة ومباشرة من تغيرات كان لها تأثير فى شتى أنحاء العالم . كذلك لم يحدث البتة أن صار رسول أية ديانة جديدة سيد زمانه وأهله مثلما أصبح عليه محمد . ولذلك لانتوقع أن نقف على تطور الشعب الذى غدا بفضل الإسلام حامل لواء حضارته والمعبر عنها ، دون

معرفة التعاليم التى تقلدت أعنة تلك الحضارة ؛ كذلك لا يمكن فصم هذه التعاليم عن الرجل الذى لقنها . فشخصية محمد ورسالته ، رسالته وسياسته ، سياسته والتطور الثقافى لشعبه ، كل هذه الأمور جميعها وثيقة الارتباط بعضها ببعض فى بناء صرح الإسلام ، بدرجة توجب دراستها سويا لاتصال أدوارها مع بعضها إتصال الحلق بحامله .

ويمكن أن نتجاوز عن أشياء عديدة إهتم بها المؤرخون المسلمون ، ولا سيما أن كثيرا من هذه الأشياء التى كانت تعتبر حتى وقتنا حقائق ثابتة ، قد أصبحت نتيجة الأبحاث النقدية الحديثة واهية مزعزعة . ذلك أن الصورة التى رسمت عن حياة الرسول وصلتنا فى تفاصيل دقيقة وصادقة فقط فى خطوطها الرئيسية ، أما سائر الألوان فقد جاءت نتيجة الإغراق فى التقوى والخيال ، والميل مع الهوى . على أننا لن نهتم الآن إلا بتعاليم الرسول خاصة وتوجيهاته التى أثرت تأثيرا مباشرا أو غير مباشر فى نشأة الحضارة الإسلامية وتطورها .

وإذا تذكرنا أنه لم يكن لبلاد العرب الوسطى حتى نهاية القرن السادس الميلادى أى لون دينى ، وأنه ظهر فى الحجاز مركز التلاقى فيها نهضة قوامها إحساس غريب بالحاجة إلى ديانة أرق ، وأن معظم الناس لم يجهلوا المسيحية واليهودية ، وأن معتنق هاتين الديانتين لم يكونوا قليلى العدد ، إذا تذكرنا كل ذلك ، لانعجب أن يجد محمد الطريق ممهدا ليدعو إلى الله ، الذى « خلق الإنسان من علق » و «الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم[1] » .

وتروى لنا كتب السير القديمة أن الرسول سمع هذه الكلمات التى ألقى بها

(١) اقتضى هذا الفصل تعديلا فى الأسلوب ، ولا سيما فى بعض الفقرات التى عالج فيها المؤلف شخصية الرسول ودعوته إلى الإسلام ، إذ تحمل تجنى يكشف عن تعصب المؤلف ، ووقوعه فى الخطأ الذى تردى فيه كثير من غلاة المستشرقين ، ضيقى الأفق . (المترجم) .

الوحى لأول مرة وهو فى حالة أشبه بالحلم . ولم يهدأ الروع العظيم الذى أحدثته هذه الكلمات إلا بعد عدة شهور أخرى عند ما سمع الآية التالية فى رؤيته الثانية : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » .

وسلم أصحاب السير المسلمون بأن هذه الحادثة كانت أول نزول الوحى ، وابتداء نبوة محمد ، وأن رسالته بعد ذلك لم تكن إلا إمتدادا لما نزل به الوحى منذ الحادثة السالفة. فأصبح نذير أمته الداعى إلى الله ، ورسول الشريعة الصحيحة الكاملة ، ومؤسس العدالة الاجتماعية بين المؤمنين . وكان الطريق الذى سلكه محمد لتحقيق هذا الهدف شاقا وطويلا ، إذ كان حيي الطبع ، وعمد إلى نشر رسالته سرا بين قريش . ولذلك انقضت بضع سنين قبل أن يصل عدد الذين آمنوا به إلى أربعين تقريبا . ولكن مهما يكن من قلة هذا النفر فإنهم صاروا القوة الفعالة والهيئة المدبرة لشئون الإسلام .

وبدأت منذ ظهور الإسلام الصلاة العامة أو المفروضة الغنية بشعائرها . ومهما يكن من أمر هذه الصلاة وعلاقاتها بالمسيحية أو اليهود ، فإنها اكتسبت قوة وأهمية خاصة بين المسلمين . ثم قامت صلاة الجماعة التى أداها المسلمون وراء إمام كان غالبا محمد نفسه . ومن يرى المسلمين وهم مجتمعون صفوفا للصلاة ، ويؤدون ركعاتها وسجداتها فى تناسق مدهش وفى نظام ووقار ، لا يمكن أن يغفل ما كان لهذه الصلاة المنظمة من قيمة تربوية فى نفوس المسلمين منذ أول الأمر . إذ يكفى أن نتذكر فقط أن ذلك الشعب كان أبيا ، لا يخضع لمشيئة خارجية ، وأنه افتقر إلى الشعور التام بالطاعة ، يكفى ذلك لأن نقدر فى الحال ما لهذه الصلاة من أهمية فى إيقاظ روح النظام والمحافظة عليها . ولذا غدا مكان الصلاة أول ميدان حقيقى للتدريب العسكرى عند المسلمين .

ثم إن انتظام المؤمنين فى الصلاة شجع روح الوحدة بين المسلمين ، وخلق بينهم شعورا بالمساواة التى كانت أفكارا جديدة على أهل بلاد العرب . إذ كانت الوحدة الموجودة حتى ذلك الوقت هى رابطة الدم ، كما أن المظاهر الرئيسية التى سادت حياة العرب إذ ذاك هى الافتخار بالأسرة والحسب والثراء ، وامتهان شأن المعوز وعديم الجاه . ولذلك فإن محمدا مهد السبيل لوحدة بلاد العرب المتنافرة ، عندما نجح فى تدعيم الاتحاد الذى احتضن على السواء الغنى والفقير على أساس المساواة، وعندما نجح كذلك فى توجيه ضربة عنيفة إلى العصبية القبلية والعائلية . واستهدف الإسلام منذ مبدأ أمره تحقيق ذلك الغرض وهو القضاء على العصبية العائلية والقبلية وتحطيمها . وإذا كانت هذه المحاولة لم تنجح تماما ، لأن بلاد العرب مازالت اليوم منقسمة على نحو ما كانت عليه قبل الإسلام (١) ، فإن ما صادفته المحاولة السالفة من نجاح جزئى ينهض دليلا إيجابيا على عمق تأثير التعاليم الإسلامية الجديدة فى العرب الوثنيين.

وإلى جانب الصلاة كانت فكرة المساواة الإجتماعية تجديدا تاما أحدثه الإسلام. فأصبحت مساعدة الفقير والقيام بأمره واجبا مقدساً ، ولم يعد من شأن الأفراد أن يعطوا كيفما شاءوا ، وإنما غدت الزكاة فرضا تجبى إلى بيت المال وينفق منها على الفقراء .

ومما يؤسف له ، أنه ليست لدينا إلا معلومات قليلة عن حياة محمد ودعوته وانتشارها فى السنوات العشرة الأولى للاسلام . فكل مالدينا عن هذه السنوات الحافلة بالأحداث لايعدو مجرد قصص قصيرة ، تشير إلى جهاد محمد ضد العادات المتفشية . على أن القرآن والأحاديث والمؤرخين العرب المتأخرين يلقون ضوءاً على هذه المرحلة الشاقة . فنرى محمداً يجاهد ضد انصراف قريش عنه ، واضطهادهم له وتكذيبهم إياه ، وسوء ظنهم به ، ويتلو الآيات فيها الوعيد باقتراب يوم الحساب وأهواله . وبالرغم

(١) يلاحظ أن المؤلف يشير إلى بلاد العرب سنة ١٩١٩ . أنظر ص ٢ من هذا الكتاب .

من ذلك لا نلمس زيادة فى عدد أتباعه ، إذ يكاد أتباع محمد بعد عشرة سنوات لا يزيدون شيئا عما كانوا عليه فى الأيام الأولى .

ولم تعارض أرستقراطية مكة التعاليم الجديدة بقدر مناهضتها للانقلابات الاجتماعية والسياسية التى حاولت هذه التعاليم القيام بها . ويكفى أن نلقى لمحة على طبيعة المجتمع الإسلامى الصغير لنتبين مبلغ كراهية قريش وسخطها عليه . فلم تقض هذه الجماعة الجديدة على الفوارق القبلية فقط ، بل هددت أيضا بإزالة الحاجز القديم بين الأحرار والعبيد . على أن العنف الذى لجأت إليه قريش لإبعاد العبيد عن تعاليم محمد أدى إلى نتائج جديدة غير متوقعة ، إذ هاجر أتباع النبي إلى الحبشة.

ومهما يكن من أغراض المهاجرين وأهدافهم ،ومهما يكن الدافع الذى أعادهم إلى بلادهم ، فإن هذه الجماعة الصغيرة غدت حلقة محكمة ، كشفت عن روح عالية أبية فى مناهضة عادات العرب الشائعة ،ويمكن أن ندرك ما أصاب قريشا من خوف فى قولهم : « إن قبولنا لتعاليم محمد زوال لنا عن ديارنا »

ولا يهمنا من الناحية التاريخية الإضطهادات التى تعرض لها محمد فى مكة وفشل دعوته هناك ، إلا أنها كانت دافعاً له على البحث عن ميادين جديدة ينشر فيها دعوته . ذلك أنه زاد عدد المهاجرين ، ونقص عدد المعتنقين للدين ، ولم يعد أهل مكة يهتمون بالنبي كثيراً معتقدين أن مجهوداته باءت بالفشل . ولكن عندما أخفقت محاولة النبي فى نشر دعوته فى الطائف المجاورة لمكة ، آثر الانتظار حتى موسم الحج فى الأشهر الحرم ، سنة ٦٢٠ م .

وحضر محمد سوق عكاظ الكبير عدة سنوات لينشر دعوته ، حيث التقى هناك بأعراب بلاد العرب الوسطى كلها والمدن المجاورة ، وحيث عرض الطموحون المتنافسون أجود منتجاتهم ، وحيث أنشد الشعراء أبدع ما جادت به قرائحهم

الأدبية . وبالرغم من أن نجاح النبي كان ضئيلا بالنسبة لما توقعه ، فإنه وجد تدريجيا نفرا مال إلى دعوته من سكان مدينة يثرب .

ومنذ قديم الزمن كانت يثرب التي تقع على مسيرة أربعة أيام شمالي مكة ، محطة هامة على الطريق التجاري إلى الشام . وحكم اليهود والعرب المتهودون هذه المدينة قبل ظهور المسيحية ، ولكن شاركهم هذا الحكم منذ القرن الخامس الميلادي قبيلتا الأوس والخزرج ، اللتان هجرتا من جنوب بلاد العرب . ولذلك لم يكن عرب يثرب ، بسبب معيشتهم جنبا إلى جنب مع اليهود ، يجهلون فكرة الوحي وفكرة الثواب بعد الموت والتمسك بالفضائل . ويبدو أن هذه الأفكار قد زعزعت كثيرا من نفوذ الوثنية العربية ، لأن نفراً من أولئك الناس مال إلى قبول دعوة الرسول .

وفي سنة ٦٢٠م حاول محمد نشر دعوته بين بعض أهل يثرب خاصة ، وفي السنة التالية استقدم هذا النفر من أهل يثرب ستة من سكان مدينتهم إلى محمد ، وتباحثوا معه في مسألة انتقاله إلى بلدهم . وتبع ذلك في سنة ٦٢٢ م مجيىء وفد مكون من خمسة وسبعين رجلا إلى الرسول وأخبروه بموافقة أهل يثرب على استقباله هو وأتباعه ، وإقامتهم بينهم . ولذلك لم يكن الحدث الذي يطلق عليه إسم «الهجرة» فراراً على الاطلاق ، وإنما كانت الهجرة خطة دبرت بعناية مدى سنتين ، وأحيطت بالكتمان خشية التجاء قريش إلى العنف .

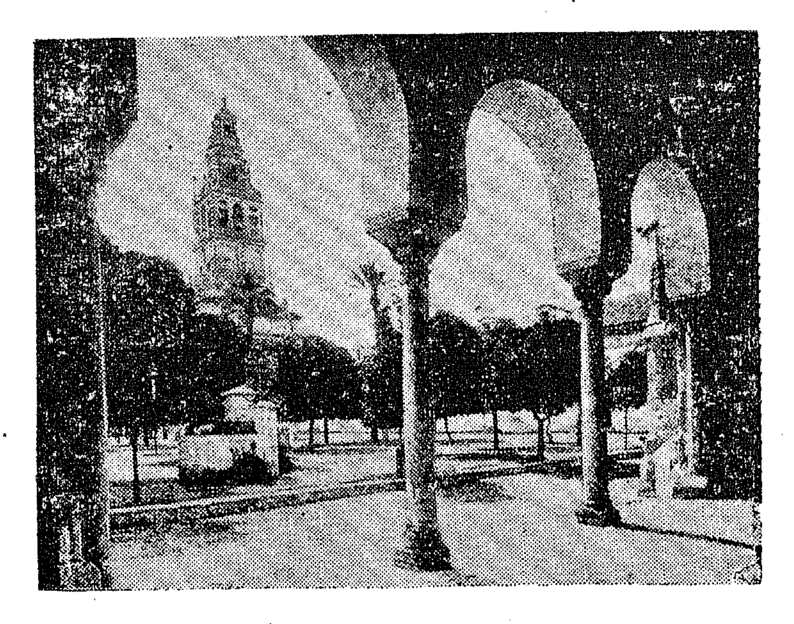
وذهب إلى يثرب أرسالا مائتا رجل ، من بينهم أولئك المهاجرون الذين عادوا من الحبشة . وكان محمد وأهله آخر من ترك مكة ، وفي ٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢م قابل أتباعه عند قباء ، ودخل معهم يثرب . وهذه هي الهجرة المشهورة التي يؤرخ بها عصر الإسلام ، إذ كانت نقطة تحول في حياة الرسول ودعوته ، كما كانت

نقطة التحول الكبرى فى تاريخ الاسلام . ذلك أن الرسول قد اختتم بانتقاله إلى يثرب مرحلة أظهر فيها مثالية تامة فى الدعوة إلى الدين الحق ، وشجاعة نادرة فى الدفاع عن معتقداته إزاء السخرية والاضطهادات . ثم إنه حقق وهو فى مكة بعض التشريعات الاجتماعية ، التى استعان فيها بالعقيدة القائلة بوحدانية الله ويوم الحساب ، وما اقترن بها من الوعد بالجنة والوعيد بالنار . وأهم هذه التشريعات هو أن واجب الفرد لا يقتصر على قبيلته فحسب ، وإنما يشمل المؤمنين جميعا ، بل والجنس البشرى عامة ، إذا ما اعتنقوا الدعوة الاسلامية .

وبدخول الرسول يثرب بدأت مرحلة جديدة فى نشر الدعوة الاسلامية . إذ كان عليه إعداد الجماعة الاسلامية فى وطنها الجديد لتتفرغ بعد ذلك لأعبائها فى سبيل الدين الاسلامى . فأعاد الهدوء والسلام إلى سكان يثرب بأن صالح بين قبيلتى الأوس والخزرج ، اللتين كانتا مشتبكتين فى عداوة مريرة منذ أكثر من قرن ، وعاشتا فى حالة حرب مستمرة . ثم نظم محمد حياة أهل مكة الذين انتقلوا إلى يثرب وعرفوا باسم المهاجرين . فآخى بين أشد المهاجرين ولاء له وبين أعظم شخصيات الخزرج نفوذا ، جريا وراء عادة عربية قديمة . وكذلك حدد علاقة الجماعة الإسلامية باليهود والمسيحيين من سكان يثرب على أساس التفاهم والمودة .

واتخذ المسلمون من الفناء المربع الشكل فى دار محمد مكانا للعبادة والاجتماع . وكانت هذه الدار مبنية على الطراز العربى ، إذ تكونت من حجرات تطل على الفناء ولا يمكن الدخول اليها إلا منه . وعلى مسافة قليلة من أحد الجدران أقيم صف من جزوع النخل ، يعتمد عليها أحد أطراف السقف المصنوع من سعف النخيل ، على حين يستند الطرف الآخر على الجدار نفسه ، وذلك ليتقى من يجلس تحته الشمس وتقلبات الجو . ويظهر أن هذا السقف لم يغط إلا الجانب الشمالى للمسجد ، وأن مستوى الأرض رفع قليلا تحت هذا الجزء المسقوف الذى اشتمل كذلك على القبلة .

وقام فى مواجهة السقيفة المدخل الرئيسى ، وبقى ثلثا البناء من غير سقف · وتلك هى الخطوط الرئيسية لأول مسجد بنى فى الإسلام ، وكان من البساطة بحيث لم يتسع المجال فيه للزيادة · وبالرغم من أن هيئة المسجد لم تحدد بأى نظام ، فإن هذا البناء البسيط الذى قام فى المدينة ظل عـلى مدى القرون النموذج الأصلى لعمار المساجد العظيمة التى شيدت فى الإسلام · فدأب بناة المساجد من المسلمين على تسقيف جانب المسجد الذى يتجه نحو القبلة ، على حين يتركون جزءا آخر فسيحا غير مسقوف وأحاطوه بجدار أو بصف من الأعمدة ·



شكل ٤ — صحن جامع قرطبة

ويمكن أن نستدل على ما كانت عليه حياة النبى العامة من بساطة وتواضع من أنه لم يخص نفسه بمكان يتميز عن غيره بأى نوع من الحلية . فـكان إذا أراد أن يخطب جماعة المسلمين استند إلى جزع من جزوع النخل فى المسجد ، ولم يتخذ لنفسه مجلسا مرتفعا ، وهو المنبر ، إلا قبل وفاته بعامين فقط · وعلى هذا

المجلس المرتفع استقبل الوفود ، وأشرف على الاجتماعات وشرع القوانين . وكان هذا المنبر عبارة عن منصة ارتفاعها ذراعان ، ولها درجتان وسطح مربع الشكل وعلى جانبي المنبر أقيم حاجزان استند إليهما الرسول إذا جلس . ومن هذا المقعد المتواضع الذى جلس عليه الرسول فى المسجد ظهر المنبر وتطور ، ولاسيما أن الناس اجتهدوا اجتهادا خاصا فى النهوض بفن المنابر منذ عهد مبكر .

وكما كان ذلك البناء البسيط مقدمة لفن العمارة الإسلامية فى المستقبل ، فإن تنظيمات الرسول التى أملتها عليه المطالب العاجلة غدت أساس بناء الصرح السياسى للدولة الإسلامية . ولم تتسم هذه التنظيمات بنظر بعيد بقدر ما دلت على ذكاء يثير الدهشة ، وأول هذه التنظيمات وأهمها هو الكتاب الذى دونه رسول الله « بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم » . وهذا الكتاب الذى يسمى « نظام الجماعة الإسلامية فى المدينة » يدل على عقلية سياسية نادرة ، كما أن له أهمية بعيدة المدى ، توجب علينا معرفة محتوياته الأساسية . وأبرز ما نصت عليه هذه الوثيقة هو « أن المؤمنين أمة من دون الناس » ، لأنها تحمل فكرة جديدة وغريبة على بلاد العرب ، ولا سيما أن معناها يتضح فى العبارة التى يفسرها ذلك القول : « إن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس » .

ولم يكن لدى العربى حتى ذلك الوقت أية حماية عدا حماية قبيلته أو وليه ، ولكن النبى خلص نفسه فى ضربة واحدة من هذه المادة العربية القديمة ، وحال بين أهل مكة وبين قيامهم بأية سياسة حازمة لمكافحته أو كبح جماحه . ذلك أن محمد حل بالوثيقة السالفة الروابط القديمة وحطم الحواجز القديمة ، ووضع كل مسلم تحت حماية جماعة المسلمين بأسرها ، وهى حماية تبيح لهم الثأر كما يؤيد ذلك الفقرة القائلة : « إن المؤمنين يبىء بعضهم على بعض بما نال دماؤهم فى سبيل الله » .

وصيغت الفقرات السالفة على نحو يدل على أنه أريد بها من أول الأمر وضع أساس إمبراطورية إسلامية ، ولكنها استهدفت فى حقيقة الأمر معالجة المشاكل الراهنة، إذ كان الرسول يفكر فى حماية نفسه وشيعته من بطش كفار مكة ، وفى الثأر من قريش لما أصابه ونزل بأتباعه . ولم يشأ محمد أن يظهر لأهل يثرب ما أعده من خطط سياسية ، وصاغ نصوص الوثيقة السالفة على نحو يتفق وأهدافه الأخيرة . وتنهض هذه الوثيقه كذلك برهاناً على تفوق النبى العقلى على أهل يثرب ، ولا سيما عندما أدخل اليهود فى هذه المعاهدة ، إذ بينما تدل على أن هدفه هو الحماية فقط ، نجد أن الفقرة الأخيرة من الوثيقة تحرم اليهود فى الواقع من كل ما تضمنته المعاهدة من فوائد ، إذ جاء فيها : « وإذا دعوا (أى اليهود) إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه . وأنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين » .

وكان الجهاد فى سبيل الدين هو الهدف الأخير لسياسة النبى ، ولا سيما القيام بحرب انتقامية ضد أهل مكة . ولم يدر بخلد اليهود أو أهل يثرب فى ذلك الحين أن محمدا كان على وشك التعبير عن هدفه بصورة عملية ، وأنه على أهبة القيام بحملة ضد مكة . أما المهاجرون فلم يكن من الصعب استمالتهم إلى ما أعده الرسول من خطط ، ذلك أن المرء لم يكن فى حاجة إلى غير نظرة صحيحة ليستفيد من عوامل الحنق التى جاشت بها نفوس المهاجرين وهم فى مهجرهم ، وشوقهم الحاد إلى وطنهم . وزاد فى حنق المهاجرين ما كانت عليه حالة المعوزين منهم ، إذ كانوا رثى الثياب ، معدمين ، ولا ينال غير جماعة منهم فى كل مساء إلا وعاء من الشعير ، ولا يجدون مأوى لهم إلا فى المبيت تحت سقيفة المسجد .

وفى نفس الوقت أظهرت الآيات القرآنية مكانة مكة فى الإسلام . أليست تضم الكعبة ، أول بيت لله ؟ . ألم يوصى الله ببنائها ؟ ، وأن ابراهيم وابنه إسماعيل هما اللذان رفعا قواعدها ؟ . أليس إبراهيم أول من قدس مكة ، وأنه الذى بشر

بظهور نبي عربي من بعده ؟ . لقد غدت الكعبة ركناً هاماً من أركان الإسلام ، ولا سيما أن المسلمين يمموا وجوههم شطرها بعد أن تحولت القبلة عن بيت المقدس ، التي سبق أن اتجهت إليها وجوه المصلين .

وقبل أن يتمكن الوثنيون واليهود في يثرب من معارضة النبي كان الطريق قد أصبح ممهدا تماما أمامه ليوجه أهل يثرب إلى حرب مكة ، ثم تطهير معسكره بعد النصر مما به من الأعداء . وفي النصف الأول من السنة الثانية للهجرة أعلن الرسول الحرب . وكانت يثرب تتحكم بفضل موقعها الجغرافي في الطريقين الرئيسيين في شمال بلاد العرب ، والذين سلكتهما قوافل مكة في متاجرتها مع الشام . واقتصر الدور الأول من الحرب على التربص لأهل مكة ومتاجرهم ، وفق عادة العرب القديمة للقتال . ذلك أن النبي محمد إلى الإفادة من أية عادة عربية تحقق له أغراضه دون التمسك بالتزاماتها[1]. فهاجم أهل مكة في الأشهر الحرم ، وأخذ يعد العدة بعد ذلك للقيام بضربة أكبر ، وهي الاستيلاء على قافلة الصيف المنتظر وصولها من الشام .

واشترك مع الرسول في هذه الغزوة المهاجرون والمسلمون من أهل يثرب ، حيث ساروا جميعاً إلى الميدان تحت لوائه ، للأخذ بالثأر من قريش . وعندما وصلت مكة الأنباء المفزعة عن استمداد محمد ، نفر رجال قريش وكانت عدتهم نحو ألف رجل ، وخرجوا ومعهم سبعمائة ناقة ومائة حصان قاصدين القتال . وفي نفس الوقت استطاع أبو سفيان قائد القافلة الهرب بها والوصول آمنا . ولذا بينما أفلت الهدف الأساسي للغزوة ، وقف الجيشان وجهاً لوجه .

وكان أهل مكة قد أقاموا يروحون عن أنفسهم عند بدر ، وهي سوق ومحطة هامة للقوافل ، على بعد أربعين ميلا تقريباً شمالي مكة ، وعشرين ميلا غربي المدينة.

---

(١) يشير المؤلف بذلك إلى سرية عبد الله بن جحش ، والتي نزل فيها قوله تعالى مبررا ذلك القتال ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه كبير . . الآية ﴾ (المترجم)

وصمم الرسول على قتالهم ، لأنه عرف تفوق جماعته الصغيرة على عدد قريش الكبير ، وعمد على ألا يدع هذه الفرصة تفلت دون أن يبين لأهل مكة ما صار إليه رجاله من قوة . ذلك أن الدين الجديد زود هذا القوم الذى كان أصلا من أهل مكة بصفات ضرورية للحرب والقتال ، لم يعرف العرب عنها إلى ذلك الحين غير مجرد أسمائها ، وهى النظام والاستهانة بالموت . أما النظام فقد لقنه الرسول لرجاله عن طريق الآيات القرآنية التى نزلت إذ ذاك ، والتى تردد فيها قوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » . ثم إن الصلاة الجامعة شجعت روح النظام ، وقد أشرنا قبلا إلى قيمة الصلاة فى تربية العرب . أما الاستهانة بالموت فقد اشتدت فى نفوس المسلمين بسبب الجنة التى وعد بها أولئك الذين يستشهدون فى سبيل الدين . ويضاف إلى هذه الصفات الخلقية العالية الخبرة بفنون القتال ، إذ عرف أهل يثرب فى الجاهلية بأنهم « أهل القلاع والدروع » . فقد تعرضوا منذ قديم الزمن لهجمات البدو وإغاراتهم التى قاموا بها على ظهور الخيل ، وعمد أهل يثرب إلى التصدى للبدو إما مشاة ، أو بالانسحاب فى حالة الضرورة ، إلى آطامهم الحصينة ، حيث امتلكت كل أسرة موسرة أطما أو عدة آطام ، انتشر الكثير منها فى الجهات المجاورة . ولذا فإن روح النظام والاستهانة بالموت من الخصال التى ورثها المسلمون عن الرسول ، على حين كانت الخبرة بفنون القتال ، وهى الحرب فى صفوف متراصة مما أخذه المسلمون عن أهل يثرب . وقد تأصلت تلك الخصال فى نفوسهم بعد انتصارهم فى بدر .

وعندما تقدم القرشيون نحو بدر فى صبيحة ١٦ مارس وقف المسلمون فى انتظارهم صفوفا متراصة قوية . وكان الرسول نفسه يسير أمام الصفوف ، ومعه عصاة فى يده يقوم بها تلك الصفوف . ولذا بعد مقدمات الحرب التقليدية وهى الدعوة إلى النزال ، وعندما حملت خيالة أهل مكة على صفوف محمد ، ثبت المسلمون تماما فى مكانهم ، ولم يتزعزعوا لحظة واحدة . وكان ذلك حدثاً جديداً أدهش

أهل مكة ، الذين أداروا أعنة خيولهم عائدين إلى أماكنهم دون إهدار نقطة دم .
ثم كرّوا على المسلمين ، ينازلونهم أفرادا ، واستمر ذلك النمط طوال النهار حتى
حان المساء . وراقب النبي مجرى الحوادث باهتمام بالغ ، حتى إذا ما غربت الشمس
كان معظم قادة أهل مكة قد سقطوا صرعى ، وأظهر القرشيون علامات الهرب .
وعندئذ أدرك محمد أن الفرصة أصبحت مواتية لتحصد قواته ثمار النظام ، فتقدم إلى
الأمام ، ورفع قبضته التي ملأها بالتراب وقذفها في وجه أعدائه . وكان ذلك
إشارة الهجوم ، إذ كرّ المسلمون على أهل مكة ، الذين ولوا الأدبار .

وتلك هي أولى المعارك التي انتصر فيها المسلمون ، وتتبعنا مجراها بدقة لأنها
تبين تفوق المسلمين على أقرانهم من أهل بلادهم ، ثم إن الانتصارات الإسلامية
الحربية التي تلت هذه الوقعة تعزى إلى الصفات التي ظهرت فيها لأول مرة بين
العرب ، والتي أخذت تنمو وتتطور بينهم ، وهي النظام والاستهانة بالموت . ولذا
فلن نهتم في دراستنا لسلسلة الحروب التي بدأت بهذه المعركة إلا بأهميتها في نصرة
الإسلام عامة .

لقد ترتب على الانتصار في بدر تدعيم مركز الرسول في يثرب ، التي سميت
منذئذ مدينة الرسول — المدنية — واختفى اسمها القديم . ثم أقبل على الإسلام
طوعاً من لم يكن قد أسلم من العرب حتى ذلك الوقت . ولم يبق غير عنصر واحد
لم يكن من المنتظر أن يدخل الإسلام ، وهم اليهود . ولكن برنامج الرسول تحدد
في ذلك الوقت بشكل واضح ، وكان يتلخص في هدفين أساسيين ، نشر الدين ،
وتدعيم سلطانه في المدينة حتى يستطيع إخضاع مكة . واقتضى الهدف الثاني
طرد اليهود من المدينة بسبب العقبات التي أثاروها في سبيل الدين الجديد . وجرى
محمد في القضاء على اليهود وفق القاعدة القديمة ، فرق تسد . فكانت القبائل
اليهودية الثلاث متنافرة لا رابطة بينها . وفي الشهر التالي لغزوة بدر هاجم المسلمون

إحدى هذه القبائل[1] ، وحاصروا ديارها ، وحملوها على ترك المدينة دون قيد أوشرط .

ولـكن قبل أن تواجه القبيلتان اليهوديتان الباقيتان ، وهما بنى النضير وقريظة نفس المصير السالف ، تحول انتباه محمد إلى مكة ، إذ خرج أهلها قاصدين المدينة فى ثلاثة آلاف رجل ، ومائتين من الخيالة . غير أن محمدا كان واثقا من الفوز ، وخرج لملاقاتهم على رأس سبعمائة رجل فقط . ونشب القتال عند سفح جبل أحد ، على مسيرة ثلاثة أرباع ساعة من المدينة . على أن المعركة دارت على غير ما يهوى النبى ، إذ كانت أوامره تحض على نظام صارم لم يستطع جيشه الفتى إلتزامها وتنفيذها . ذلك أن محمدا وضع خمسين راميا — يحتمل وفق نصيحة أجنبية — على الجناح الأيسر لـكتيبته ، وأصدر لهم الأمر التالى : « لا تندفعوا لجمع الغنائم إذا انتصرنا ، ولا تهبوا لنجدتنا إذا انهزمنا . » ولـكن هذا الأمر تضاءل أمام الميول الفطرية الـكامنة فى نفوس أفراد الجيش ، إذ عندما تزعزع مركز أهل مكة وخلفوا أسلابهم للمسلمين ، ترك الرماة أماكنهم مخالفين التعاليم التى لديهم ، واشتركوا فى جمع الغنائم . ولاحظ قائد موهوب فى خيالة أهل مكة ضعف مركز أهل المدينة وهاجمهم من الخلف . وأدى تجدد القتال إلى انتشار الاضطراب الذى جرح فيه الرسول ، ثم إلى انسحاب المسلمين من الميدان .

وهكذا أسفرت المعركة الثانية فى الاسلام عن هزيمة . ولـكن سرعان ما تغلب محمد على هذه الأزمة الطارئة . ويعزى ذلك أيضا إلى شخصيته القوية ، فبينما افتقر أهل مكة إلى قائد يساعدهم على اجتناء ثمار نصرهم ، تغلب محمد على الأخطار التى تهددت سلطته فى المدينة بفضل مواساته للمسلمين ، وطرد القبيلتين

---

(١) هذه القبيلة هى « بنى قينقاع » التى قتلت مسلما ، مما حمل المسلمين جميعاً على محاصرتها وإخراجها من المدينة (المترجم).

اليهوديتين الباقيتين ، بنى قريظة والنضير[1] ، وماحصل عليه من العتاد ، وغدت روح المؤمنين عالية مرة أخرى بعد أن كاد الوهن يتطرق إليها . وبعد سنة واحدة فقط إستعاد محمد هيبته بظهوره على رأس ألف وخمسمائة من أتباعه فى سوق بدر ، وحمى شرفه أمام بلاد العرب الوسطى كلها .

وأدرك أهل مكة تدريجيا ، ولكن بشكل قاطع ، أن تجارتهم ومركزهم فى بلاد العرب ، بل وكيانهم كذلك أصبح فى كفة القدر مالم توقف المدينة عند حد وبصورة جدية ، ويقضى على مركزها المادى الجديد · ولذلك جمع أهل مكة بعد سنتين من مجهود شاق ، جيشا مكونا من عشرة آلاف رجل ، بعضه من بلدهم والباق من البدو المحالفين لهم · ومن المقطوع به أن تحالف البدو مع الحضر وتكوينهم أحد العناصر فى جيش كبير ظاهرة جديدة فى التاريخ الحربى لجوف بلاد العرب . ولاشك أن هذه الظاهرة تعزى إلى وطأة الظروف إذ ذاك وإلى الرغبة فى اقتلاع مصدر القلق من بلادهم والقضاء عليه .

وصمم أهل مكة على محاصرة المدينة ، مركز الاضطراب والاستيلاء عليها ، ولكنهم وجدوا أنفسهم مرة أخرى وجها لوجه أمام خطة حربية جديدة ، وإن كانت بسيطة فى ذاتها إلا أنها كانت تكفى فى حد ذاتها لإفساد قصدهم والقضاء عليه · إذ حفر محمد بناء على نصيحة رجل فارسى خندقا حول الجهات الضعيفة فى الجانب الشمالى من المدينة ، ثم عسكر هناك بجيشه الذى بلغ ثلاثة آلاف رجل تقريبا. وبينما حمى الخندق المسلمين من أهل مكة ، فإن افتقار البدو إلى النظام وسوء الأحوال الجوية ودفاع المسلمين المتواصل وحذرهم أتم الشطر الباقى من الموقف . إذ انسحب

(١) المعروف أن الرسول لم يهاجم إلا قبيلة بنى النضير ، التى نقضت عهدها معه وأرادت أن تغدر به وبالمسلمين . وهاجرت هذه القبيلة من المدينة على حين بقيت قبيلة قريظة (المترجم) .

الجيش المحاصر فى جنح الليل ، بعد أن حل به الإنهاك وانهارت روحه المعنوية بعد حصار استغرق ثلاثة أسابيع .

وهكذا نجت المدينة من خطر كاد أن يقضى عليها قضــــاء مبرما ، لو كان المحاصرون أكثر ثباتاً وتعاوناً ، ولو أن البقية الباقية من يهود المدينة آزروا أهل مكة على تحقيق ذلك الهدف . ثم إن أهل مكة اعتمدوا فى هذه الوقعة عـلى ما لديهم من قادة ماهرين ، على حين اعتمد أهل المدينة على القيادة المركزية . وبذلك أسفرت « غزوة الخندق » عن فوز جديد للنظام على الجحافل العديدة .

وأثبتت الأعمال التى قام بها الرسول بعد هذا الفوز عما يتحلى به من نظر ثاقب ، إذ قرر معاقبة من تخونه من اليهود وقضى عليهم ، وأصبحت المدينة بذلك فى قبضة يده . ثم غدا همه الأول حمل البدو المقيمين فى النواحى الممتدة إلى قلب نجد والجوف الشمالى على الدخول فى طاعته . وكذلك لم تعد مكة مبعث خوف لمحمد أو لـكراهيته وغدا يفـكر فى الاستيلاء عليها . وفى سنة ٦٢٩م دخل محمد مكة معتمرا بمقتضى صلح كشفت شروطه عما يتحلى به من مقدرة مدهشة على ضبط النفس . وأصبح عمل الرسول بعد ذلك يعلن عن شخصيته ، إذ كما أدرك عقلاء مكة تماما أنه لا يمكن إيقاف نشاطه أو الوقوف فى سبيله ، فإنهم أدركوا أيضاً أن مراميه لا تحمل تهديدا لمـكانة مكة أو مهاجمتها . ولذلك لم يكن عجبا أن ينضم إلى النبى أعظم قائدين حربيين فى مكة وهم عمرو وخالد ، اللذين سيجدان فى خدمته مجالا أكثر صلاحية وموائمة لمواهبهما ونشاطهما ، عما كانا يجدانه مع أهل مكة .

وأصبح جيش محمد عندئذ قوة فى بلاد العرب لا يمكن التغلب عليها ، وصار محمد سيد الموقف الآن وباستطاعته أن يعامل القبائل كما يشاء . على أن الوقت لم يكن قد حان بعد لإرسال حملات إلى الخارج ، وشن حروب على الدول المجاورة لبلاده .

غير أن الرسول اصطدم في ذلك الوقت مع إحدى تلك الدول ، وهي الامبراطورية الرومانية الشرقية ، إذ تملك بقتل خمسين مسلماً على الحدود الشامية ، وأرسل إلى الشمال جيشا مكونا من ثلاثة آلاف رجل . ويرى المسلمون والمؤرخون المتأخرون أن الدافع الذي حفز الرسول على تلك الحملة هو القيام « بواجب الحماية » . على أن الدوافع الحقيقية لم تعرف إلى الآن بصورة قاطعة ، ومن المحتمل أن العوامل الاقتصادية لعبت دورا في هذه الحملة .

وعند مؤته على البحر الميت التقى جيش المسلمين بالقوات الرومانية الحسنة التدريب والعدة . وبعد ثلاثة أيام تبادل فيها الطرفان السجال ، عاد المسلمون مهزومين . على أن الرسول استقبل الفلول مواسيا . وسرعان ما تخلت قبائل البدو عن محاولتها التخلص من سلطان الرسول ، ورأت أن من صالحها الإيمان به والانضمام إليه ، لا أن تكون من أعدائه ، ثم غدا إيمانها وثيقا ، ودخلت قبائل وجماعات بأسرها في الدين الإسلامي .

وأخيراً شاهدت سنة ٦٣٠ م سقوط مكة ، التي جاءت ثمرة لمثابرة محمد التي لم تكل ولمجهوداته الموفقة التي بذلها . ولم يلق جيش المسلمين الذي بلغ عدده عشرة آلاف رجل أية مقاومة . وعامل محمد أهل مكة بمنتهى التسامح ، ولم يأمر إلا بإعدام عدد قليل فقط من أعدائه القدامى ، الخطيرين على الدعوة الاسلامية . ثم إنه حرم النهب وترك حقوق الملكية القديمة دون أن تمس . وأظهر محمد احترامه للكعبة ، فلم يزل منها غير الأوثان القائمة بها الخشب ، وأمر أهل مكة بتحطيم ما كانوا يعبدونه من آلهة في بيوتهم . ثم إنه عهد أثناء بقائه في مكة إلى قائد بتحطيم معبد الإلهة عزى في نخلة ، ومعبد سواع في المنطقة الضاربة فيها قبيلة هذيل .

وبذلك حقق محمد رسالته ، كما أن البدو حرصوا على عقد أواصر الصداقة

مع الرسول ، بعد أن أدركوا أنه لا يمكن الاحتفاظ بمركز القبيلة الشاذ إزاء أمة الرسول الكبيرة ، وأن مؤازرة القبيلة سواء أكانت كبيرة أم صغيرة لا تكفل للفرد الحماية التى يجدها المسلم من مجتمعه الاسلامى .

وجاءت الوفود كذلك من جميع أنحاء بلاد العرب تعرض على الرسول إسلامها وانضمامها إلى جماعته . ولكن محمد تشبث بقبولها للاسلام دون أن يحيد عن ذلك ، إذ كان يقدر تماما مهمته فى سبيل نشر الدين ، ويدرك رسالته فى حمل الناس على الإيمان الحق بالله وضرورة الخضوع لمشيئته . فجاهد الوثنية باسم الله ، مستهدفا منع وأد البنات ، وجمع شمل القبائل على المحبة والوفاق ، وقفل أبواب الحروب المهلكة ، وتنظيم حياة الضعفاء وحمايتهم .

ولم يغفل محمد رسالته الدينية فى معاملته لليهود والمسيحيين ، إذ حارب اليهود حرب إبادة عندما رآهم يهددون سياسته ، على حين عاملهم فى مسائل الاختلاف حول العقيدة معاملة تدل على ألاّ إكراه فى الدين . فلم يتدخل فى معتقداتهم وتركهم فيها وشأنهم ، على نحو ما فعل مع المسيحيين الذين لم يعارضوا دعوته البتة فى بلاد العرب . ومن الواضح أن الوضع السياسى الذى اختص به محمد اليهود والمسيحيين فى المجتمع الإسلامى ، أدى إلى أعظم النتائج فى تطور الدولة الإسلامية . وكذلك تخلفت آثار بعيدة المدى عن المعاهدات التى أبرمها محمد أثناء حملته فى شمال بلاد العرب ، والتى كانت آخر حملة قادها بنفسه . ذلك أن محمدا وضع جيشا مكونا من ٣٠٫٠٠٠ رجل فى تبوك على حدود مملكة غسان ، ودون أن يقوم بأية عملية حربية واحدة عقد مع أمير أيلة (العقبة) المسيحى ، ومع بعض القبائل اليهودية الجنوبية ، معاهدات تمتع بمقتضاها اليهود والمسيحيون بحماية الأمة الإسلامية مقابل دفع الجزية .

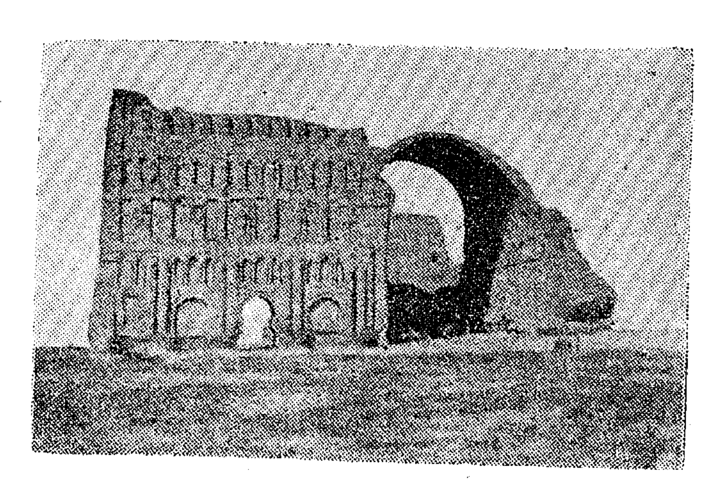
وعلى ذلك ظهر فى الإسلام طبقتان من دافعى الضرائب،وهما المسلمون الذين دفعوا الزكاة (للفقراء) ، وأهل الذمة الذين دفعوا الجزية (ضريبة الرأس) ، التى تعهدت الأمة الإسلامية فى مقابلها بحماية هذه الطبقة . وكان محمد أقل تسامحا مع الوثنين منه مع اليهود والمسيحيين ، فبعد تسع سنوات من استقراره فى المدينة أمر أبا بكر بأن يعلن فى موسم الحج : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » ، « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم »[1] .

وعندما جاء النبى إلى موسم الحج فى العام التالى لم يكن هناك مشرك واحد بين الآلاف التى وفدت إليه . إذ صارت بلاد العرب رهن مشيئة رجل واحد ، وتدين بعقيدة سامية ، ونظم عالية . وفضلا عن ذلك غدا الطريق أمامها مفتوحا لغزو العالم ، إذ جرت استعدادات فى بلاد العرب لإرسال حملة إلى حـــدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وذلك عند ماتوفى الرسول فى ٨ يونيو سنة ٦٣٢م .

وعندئذ حان القول الفصل ؛ هل المبادىء التى غرسها الإسلام فى بلاد العرب كانت من القوة بحيث حفظت وحدة العربَ وقادتهم إلى طريق المجـد والفتح ، أم أن الأمر كله لم يعد أن تـكون شخصية فرد وحكمته ، وليست الديانة التى أسسها ، هى التى كسبت فوزاً باهراً بعيد المدى ؟ .

---

(١) وردت هاتان الآيتان فى موضعين من سورة التوبة . (المترجم)



شكل ٥ — تاكى كسرى (إيوان كسرى) ، وهو مقر الملك الفارسى فى المدائن

الفصل الثالث

عصر الفتوح

عند ما توفى الرسول ظهرت مسألة على جانب عظيم من الخطورة ، لم يكن أحد قد فكر فيها إلى ذلك الوقت ، وهى : هل هناك إستمرار لرسالة محمد؟ ، هل ينبغى أن يكون هناك من يخلفه ؟ ، أم هل من المستحيل أن يحل أحد محل محمد ؟. ذلك أن أهل المدينة أحسوا إحساسا عميقا بالحاجة إلى قائد ذى إرادة ، وكانت تلك الحاجة ماسة إلى درجة أنهم أقروا جميعا ، دون جدال ، ضرورة قيام خليفة للرسول . على أن المشكلة الصعبة تركزت فى إقرار المبادىء التى يجب أن يمين عليها الخليفة وتحديد مدى سلطته . وكانت تلك أعقد المشاكل جميعا منذ زالت بوفاة الرسول الحلقة التى ربطت بين العناصر المتباينة فى المدينة . فأحس المهاجرون الذين رافقوا

محمدا إلى يثرب ، والذين تقلدوا معظم أزمة السلطة ، أحسوا الآن فجأة أنهم أجانب لاسند لهم فى المدينة · ثم إن قبيلتى المدينة ، وهما الأوس والخزرج ، اللتين دعم الاسلام الرابطة بينهما إلى حد كبير ، قد تيقظتا من جديد إلى ما كان بينهما من تنافس قديم · ثم إنه اتضح من الاقتراح الذى تقدم به أهل المدينة خاصا بانتخاب أمير من بينهم وآخر من أهل مكة ، اتضح منه كيف أن أهل المدينة كانوا متأخرين جدا فى حلبة السياسة عن أهل مكة ، إذ لو وضع ذلك الاقتراح موضع التنفيذ لتهدد كيان الاسلام الفتى تهديداً خطيرا .

على أن المهاجرين نظروا إلى المشكلة بالفطرة العربية القديمة ، واتخذوا مما فعله الرسول عندما اختار أبا بكر ليؤم الصلاة أثناء مرضه طريقا لحل الأشكال . وكان أبو بكر فى الحقيقة جديرا بأن يخلف النبى ، لأنه أكبر المقربين إلى محمد سنا ، فضلا عن أنه صهره ، وأن النبى أشار إليه بنفسه · وعند ما توجه أبو بكر فى صحبة أتباعه إلى المكان الذى اجتمع فيه أهل المدينة قام نقاش خطير بين الحزبين · لكن فطنة عمر أنقذت الموقف ، إذ اتبع تقليدا عربيا ، بأن بسط يده وصافح أبا بكر ، وغدا هذا العمل رمزا للبيعة فى المستقبل · وحذا معظم الحاضرين حذو عمر ، ثم حدثت البيعة العامة فى اليوم التالى · غير أن عددا ليس بالقليل من أصحاب النفوذ امتنع عن بيعة الخليفة المنتخب ، وكان أولئك هم الهاشميون أقرباء النبى .

ويجب أن نلاحظ أن مبدأ الوراثة لم يراع فى هذه البيعة ، وذلك برغم تدعيم أهل مكة لحقوق العصبية القبلية أو رابطة الدم منذ قبولهم الاسلام . فلم تلعب صلة القربى أى دور أو تسهم بأى نصيب فى انتخاب أبى بكر ، الذى استمد سلطته من البيعة العامة . وإذا كانت هذه الطريقة التى انتخب بها أبو بكر ، والتى ترجع إلى العرف الذى جرى عليه العرب قبل الإسلام ، قد اعتبرت مبدأ رسميا يجب أن يتبع فى انتخاب سائر الخلفاء لحالت هذه الطريقة دون وقوع الكارثة التى نزلت

بأقارب النبي . ولكن لم يكن للاعتبارات النظرية أى وزن فى تلك الأيام ، وإنما تم انتخاب كل خليفة جديد بطريقة تخالف من سلفه ، طبقا لما أملته مطالب الساعة ، مما أدى إلى النزاع والشقاق .

ولم يفكر أولئك المسلمون الأول أيضا فى إقرار طريقة لانتخاب الخلفاء أو تحديد سلطتهم ، إذ تطلعوا إلى الرسول يلتمسون عنده الهداية فيما يعنّ لهم من أمور . وتبعوا خليفته بنفس الروح ، فكما أن محمدا لم يطالب لنفسه بأى امتياز غير إمامة الصلاة فإنهم توقعوا نفس الشيء كذلك من خليفته . وكانت المدينة شديدة الاهتمام ببقاء ذلك الوضع ، والاحتفاظ أيضا بخليفة النبي بين جدرانها .

غير أن الآراء خارج هذه المدينة المقدسة كانت مختلفة . ذلك أن بلاد العرب دانت بالخضوع للنبي ، ولكن منذ اللحظة التى انتقل فيها إلى الرفيق الأعلى انطلق العنان للأحقاد القديمة والقيود البغيضة ، التى كبح النبي جماحها . ومما يجدر بالملاحظة أنه بينما لم يتوقع البدو من تغير الأوضاع شيئا غير التخلص من الزكاة ، أظهر أهل الحضر ميلا إلى اتخاذ أنبياء محليين بدلا من سلطة المدينة . فظهر أنبياء مدّعون فى أنحاء مختلفة من بلاد العرب ، تمتع بعضهم زمن الرسول بنوع من النفوذ ، وإن كان لايقارن طبعا بسيادة محمد . وقام أحدهم ، وهو مسلمة ، الذى لقبه العرب بمسيلمة (الكذاب) بمحاولات خطيرة جدية لمنازعة محمد ، إذ أدى اعتراف قبيلته بنو حنيفة فى اليمامة برئاسته عليها والتسليم بنبوته إلى التجرؤ على أن يقترح على الرسول أنه يجب أن يعيش النبيان فى سلام جنبا إلى جنب . ولكن الرسول عامل مسيلمه باعتباره كذابا وأهمل شأنه .

وبعد وفاة الرسول ادعت «سجاح» وهى امرأة من بنى تميم النبوة ، وعقدت حلفا مع مسيلمة . وفى شمال المدينة ادعى طليحة النبوة ، وفى اليمن إعترف أهلها

بنبوة الأسود[1] . وفى الواقع لم تعترف أية ناحيــة من النواحى التى ظهر فيها مدعو النبوة بسيادة المدينة ، كما تحدت قبائل نجد كلها وجنـوب الحجاز ، وجاهدت للقضاء على سيادة المدينة . وهكذا أصبح أهل بلاد العرب مرة أخرى على وشك هدم الوحدة التى لم يكونوا قد اعتادوها من قبل ، ولم يبق من الروح التى بثها الرسول فى الجزيرة إلا أثر قليل منها فى المدينة .

وتـكاتف البدو للقضاء على المدينة التى وقفت كأنها جزيرة منعزلة وسط بلاد العرب التى ارتدت عن الدين ، ثم لم يلبثوا أن هاجموا المدينة فعلا . ولـكن المدينة صدت هجومهم ، وأصبح ضروريا إعادة بلاد العـرب إلى حظيرة الإسلام . وكان نضال المدينة مريرا فى الشمال والجنوب ، ولـكنها انتصرت دائما . فالحرب التى شنتها لإخضاع اليمامة والقضاء على نبيها مسيلمة كانت من أشد الحروب قسوة وأكثرها سفـكا للدماء ، إذ يذكر التاريخ أن مسيلمة هزم بقواته البالغ عددها ٤٠٫٠٠٠ جيشين من جيوش المسلمين الممتازة ، وذلك قبـــل أن يتقدم الجيش الثالث من الشمال بقيادة خالد بن الوليد . ثم إن خالدا ، الذى يعتبر أعظم قادة الإسلام فى عصره الأول ، وجد أنه ليس من اليسير الصمود أمام قوات مسيلمة ، التى تفوق قواته عددا وعدة . ولـكن شدة غيرة أهل المدينة وكذلك المهاجرين والبدو زودت الجيش الإسلامى بالقوة والعزيمة ، وهيأت له الانتصار فى النهاية وهزيمة قوات مسيلمة ، إذ اضطر مسيلمة إلى الاعتصام داخل حـديقة ذات جدران عالية ، وعندما هم بالخروج وجد الأمر عسيرا ، ودارت مذبحة وحشية خر فيها مسيلمة قتيلا . وبلغ عدد القتلى من بنى حنيفة نحوا من ١٠٫٠٠٠ ، ومن المحتمل أن يكون هذا العدد مبالغ فيه . ولـكن لم تـكن الخســارة التى أصابت المسلمين أقل من ذلك العدد ، إذ يدل على جســامة ضحايا المسلمين وكثرتهم

---

(١) يقصد المؤلف بذلك ، الأسود بن كعب العنسى الذى ادعى النبوة فى صنعاء . (المترجم)

خوف الخليفة من أن عدد القتلى من الصحابة أصبح يهدد حفظة القرآن على أن هذا الفوز الذى كسبه المسلمون عند « حديقة الموت » جعل خضوع بلاد العرب مرة أخرى أمرا محققا ، إن لم يكن قد تم فى الواقع . ومثلما حدث منذ أربع سنوات من قبل ، انضم الذين غلبوا فى الصراع الأخير إلى المسلمين مرة أخرى ، وحاربوا معهم أولئك الذين لم يتم إسلامهم بعد . وبعد عام من هذه الحروب خمدت روح الردة فى بلاد العرب ، ودان العرب لأشراط الاسلام ، وسيادة الخليفة فى المدينة .

وإذا كانت بلاد العرب قد غزت نفسها فإن ذلك جرّ عليها الضنك الذى تجلبه الحروب عادة ، حيث استنفدت موارد البلاد الضئيلة بطبيعتها ، فرأى البدو أن قطعانهم قد هلكت ، على حين وجد أهل المدن أن حقولهم قد خربت وتجارتهم قد بارت . ولذلك ظهر الآن الحافز الذى كان يدوى منذ زمن بعيد مناديا بعبور حدود شبه جزيرة العرب والنزول فى البلاد المغرية التى تجاورها[1] . ثم أن الإسلام بعد أن حرّم على القبائل نهب بعضها بعضا ، حشد قوات العرب حشدا ، وهيأها للقيام بأعمال حربية ذات نطاق واسع . وكانت أحوال الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية تساعد على تحقيق الهدف الإسلامى المنتظر ، وتشجع على انطلاقه.

وهكذا بدأت فى عهد أبى بكر فتوح الإسلام المظفرة ، إذ ما كاد العرب يتحركون حتى انطلقوا قدما دون توقف ، تعضدهم السوابق المماثلة فى تاريخ بلادهم القديم . ولكن ظهر على عهد الخليفتين الأولين عيوب العرب القديمة وهى

---

(١) يحاول المؤلف بيان أهمية العامل الاقتصادى فى الفتوح الإسلامية ، ولكن أسلوبه فى التعبير يحمل معانى سيئة توهم بأن الناحية الاقتصادية هى كل شىء فى الفتوح . غير أن هذا الخطأ الذى وقع فيه المؤلف ترداد لنغمات سبق أن رددها المستشرقون المغرضون ، ولا داعى للرد عليها بعد أن أثبتت الأبحاث الحديثة خطأ هذه الآراء . (المترجم)

الذاتية والفردية ، حيث أخذت تعمل إذ ذاك فى الخفاء ، ثم انفجرت مرة أخرى فى عهد عثمان وعلى . ويعد عثمان برغم تقواه أول من أعطى الخلافة طابعا زمنيا ، وأطلق العنان للنزوات القبلية التى كانت مكبوته حتى وقته . ومما لا شك فيه أن الأتقياء عارضوا معارضة شديدة هذه الخطوة الأولى لمنح الخلافة صبغة زمنية ، فقتلوا الخليفة ، الذى حمل أهله جثته فى ظلام الليل ودفنوه سرا فى المقابر . وأدت هذه الكارثة التى وقعت سنة ٣٥ هـ إلى وقف حركة الفتوح التى سارت منذ وفاة النبى فى جميع الاتجاهات .

غير أن الحملات المظفرة التى حدثت على عهد أولئك الخلفاء قد مهدت الطريق للحضارة الإسلامية ، مما يوجب إلقاء نظرة عليها . بدأت تلك الحملات بالزحف نحو القطر الذى كان منذ الأيام الأولى مسرحا للهجرات العربية ، ونقصد بذلك السهل الأدنى للفرات . إذ طلب المثنى ، سيد بنى بكر ، والمقيم فى الجهات المجاورة لهذا السهل ، طلب موافقة الخليفة ليغير على الحدود الفارسية . فأرسل إليه أبو بكر القائد خالد بن الوليد ، الذى عاد إذ ذاك من الوقعة المعروفة باسم «حديقة الموت» . وسار خالد على رأس جيش مكون من ١٠٫٠٠٠ من رجاله ، ٨٠٠٠ من قوات المثنى ، وتقدم فى الأراضى الفارسية قرب مصب نهر الفرات ، وذلك فى نهاية سنة ١١ هـ (٦٣٣ م) . وبعد ثلاثة شهور إلتقت قوات خالد عند الكاظمية بقوات الحاكم الفارسى ، وأسفرت المعركة الأولى عن انتصار الإسلام ، حيث تلا هذه الموقعة سقوط الحيرة سريعاً . وفى أواخر سنة ١٢ هـ سيطر خالد على شاطىء الفرات ، حيث سار منه ثلاثة أيام واحتل المدائن عاصمة الفرس .

ولكن أبا بكر لم يطق بعد هذا النصر الأول الصمت عن أعز أمانى قلبه وهى إدخال الشام ، ولا سيما بيت المقدس ، فى حظيرة الإسلام . ولما كان الفوز فى ذلك الميدان ، يعتبر فى نظره أعظم من أى انتصار فى مكان آخر ، فإنه أمر خالد

بالتوقف عن الزحف . وأثبت الخليفة أنه كان على صواب حقيقة عندما احتفظ بقوات خالد لتكون قوة احتياطية للحملة الشامية ، إذ بعث جيشا من المدينة إلى جنوب فلسطين ، وثلاثة جيوش أخرى إلى المناطق الواقعة شرق الأردن . ولكن بعد انتصارات بسيطة وقف تقدم هذه الجيوش ، وعندئذ طلب القادة النجدات ، فأمر الخليفة خالدا بالإسراع إلى الشام مع فرقته المكونة من ٣٫٠٠٠ من الخيالة .

وكان النظام في الجيش العربي إذ ذاك جيدا بدرجة جعلت خالد دون أى تردد يسلم قيادة الجيش إلى المثنى ، ثم يشق طريقه عبر بادية الشام . وبعد رحلة استغرقت خمسة أيام وخمس ليال فى جهات مجهولة ، غير مطروقة ، وصل خالد إلى دمشق . وهناك قام بحملة استطلاعية قصيرة فى الجنوب ، تقدم بعدها إلى الجيوش الثلاثة التى وقفت أمام أسوار بصرى وانضم إليها . ولذا كانت بصرى أولى المدن التى سلمت للجيوش الإسلامية . ثم استولى خالد سنة ١٤ هـ (٦٣٥ م) على دمشق بعد انتصارين آخرين على البيزنطيين . ولكن المعركة الفاصلة دارت عند اليرموك (Hieromax) ، حيث حارب ١٠٠٫٠٠٠ من الروم ٢٤٫٠٠٠ من المسلمين تحت قيادة خالد . ولكن قوة البيزنطيين الحربية سحقت فى هذه الموقعة .

وفى نفس الوقت الذى جرت فيه تلك الوقائع ، كان جيش عربى تحت قيادة عمرو الباهرة يشق طريقه فى جنوب فلسطين قاصداً بيت المقدس ، التى سلمت للغزاة سنة ١٧ هـ . وفى سنة ١٩ هـ ، ٢٠ هـ وصل المسلمون إلى نقط عديدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

وفى تلك الأثناء توفى أبو بكر وخلفه عمر سنة ١٣ هـ . وكان المثنى فى موقف حرج فى فارس منذ استدعاء خالد . ولذا عبأ عمر بدو جنوب بلاد العرب وزودهم بالسلاح

وأرسلهم إلى الميدان الشرقى من أرض القتال تحت قيادة سعد بن أبى وقاص . وعند القادسية ، فى المنطقة المجاورة للحيرة ، منى الجيش الفارسى بأجمعه بهزيمة ساحقة سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) ، بعد قتـال استغرق ثلاثة أيام . ثم تعقب الجيش الإسلامى الملك الفارسى الطريد ، واستولى على المدائن ، وعند نهاوند قضى على آخر ما تبقى من قوات يزدجرد سنة ٣١ هـ . ولذا تابع المسلمون تقدمهم دون أن يلقوا أية مقاومة . فاحتلوا الرى (طهران) وهمدان وأصفهان ، وبعد استيلائهم على اصطخر غدا الطريق أمامهم مفتوحا إلى كرمان وخراسان وبلاد ما وراء النهر . وهكذا طويت كما تطوى الصحيفة الدولة الساسانية إلى الأبد .

ولم تكن الدولة الرومانية الشرقية فى ذلك الوقت بأحسن حالا من فارس ، إذ سرعان ما تقدم عمرو بن العاص ، بعد فتح بيت المقدس ، من الشام إلى مصر . وبعد سنة من نضال مرير مع الجيوش البيزنطية نجح عمرو فى هزيمة حامية بابليون (ممفيس القديمة) ، على مقربة من عين شمس ، ثم صعد مع النيـل واحتل إقليم الفيوم . ويئس المصريون من الحصول على أية مساعدة بيزنطية بعد وفاة هرقل ، وما تلا ذلك من خلاف حول العرش . ولذا عقد بطريق الأسكندرية معاهدة مع العرب فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م ، انتقلت الأسكندرية بمقتضاها إلى أيدى العرب ، وأصبحت مصر كلها أرض خراج للإسلام .

ولـكن ترتب على ذلك أن أصبحت الأقاليم البيزنطية فى شمال أفريقيا والمجاورة للحدود المصرية دون حماية . ومن ثم فتح العرب سنة ٢٢ هـ برقة وطرابلس . ومنذ بداية سنة ٢١ هـ شق المسلمون طريقهم أيضاً إلى أرمينيا وجورجيا وأزربيجان . وفى سنة ٢٨ هـ هاجموا قبرص بحرا واستولوا عليها . وتلا ذلك فترة وقف فيها تيار الفتح حتى سنة ٣٢ هـ (٦٥٣ م) ، حيث تجدد نشاط العرب فى تلك الميادين ، وتم لهم الاستيلاء على أرمينيا . ثم قاموا بمحاولة لمهاجمة القسطنطينية ، فتقدموا



شكل ٦ — صحن ومئذنة جامع سيدى عقبة بالقيروان

بعد استيلائهم على رودوس إلى خلقدونيا ، ولكنهم عادوا دون أن يحققوا شيئا بسبب عاصفة هوجاء حطمت أسطولهم . وبرغم ذلك فإنه لم تكد تمضى إذ ذاك على وفاة النبي غير ثلاثين عاما حتى امتدت رقعة الدولة الإسلامية من بلاد ما وراء النهر إلى خليج صرت ، وهى رقعة تبلغ تقريباً نصف مساحة أوربا.

وأول سؤال يخطر للناظر العابر إلى تلك الحقائق هو : كيف تمكن شعب غير خبير نوعا ما بفنون القتال من هزيمة القوات الحربية الهائلة التابعة للبلاد المتحضرة المجاورة له ؟ . إذ مهما كان تقديرنا عاليا للصفات المعنوية التى تحلى بها الجيش الإسلامى ، فإنها وحدها لا تستطيع مناهضة البيزنطيين والفرس الذين تفوقوا على هذا الجيش فى الخبرة والتدريب . ثم إن الأسباب الاقتصادية كذلك التى أوهنت من روح الفرس المعنوية لا تشفى الغلة فى تعليل فوز الجيوش الإسلامية .

ومهما يكن من أمر ، فيجب عند البحث فى حل لهذه المشكلة ألا نغفل القوة العددية عند الجيوش الإسلامية ، وما كانت عليه من التنظيم والعدة . ولا يمكن كذلك التجاوز عن العوامل الاجتماعية والمعنوية العميقة ، التى شدت من أزر الجيوش العربية . إذ لو قارنا بين الجيوش التى عرفها العرب قديما قبل الإسلام وبين الجيوش التى أعدوها فى ظل الدين لتبين لنا أن جيوش الخلفاء بلغت عددا ضخما . ومن أمثلة ذلك أن الجيوش الأربعة التى أرسلها أبو بكر إلى الشام تألفت من ٠٠٠ر٣٣ رجل ، على نحو ما ذكرته لنا روايات صادقة . ثم انضم خالد إلى هذه الجيوش بثلاثة آلاف من العراق . وضم إلى جانب ذلك قوة احتياطية مقدارها ستة آلاف رجل . واشترك فى وقعة اليرموك سبعون ألف رجل ، مما يدل على أن القوات الإسلامية المحاربة فى الشام قد تضاعف عددها فى الوقت الذى نشبت فيه تلك المعركة .

ويمكن أن نقول أيضاً أن نجدات مماثلة ذهبت إلى الجيوش التى حاربت فى الميدان الشرقى . ولكن ينبغى ألا ننسى أن معظم الجند اصطحبوا معهم عائلاتهم ، نساءهم وعبيدهم ومواليهم . ثم إن الجيش لم يقسم إلى فرق ، وإنما

كان الجند فيه قبائل ، لكل قبيلة لواؤها الذى يلتف حوله أفرادها ، على حين يُظل الجيش كله راية النبي ذات اللون الأسود .

وكان هناك نوعان فقط من القوات ، الرجالة والفرسان ، ويستخدم الرجالة من السلاح الدرع والرمح والسيف ، وبعض منهم يستخدم المقلاع والقوس . أما عتاد الفرسان الرئيسى فكان رمحا طويلا بلغ عشرة أذرع . وتكونت تشكيلات الجيش منذ عهد النبي من خمسة أقسام : قلب وجناحان ومقدمة وساقة ، وظل ذلك النظام متبعا فى حملات الفتوح الكبرى .

وتلك هى الجيوش التى بنى بها الإسلام فى سنوات قليلة إمبراطورية شاسعة . وبيان ذلك ليس بعسير ، إذ أن العرب دربوا على فنون القتال ، واكتسبوا فيها مرانا طويلا من تكرار الصراع مع بعضهم بعضا . أضف إلى ذلك أنهم إذا ما قورنوا بجيوش الأمم المتحضرة فى أيامهم ، مالوا إلى البساطة ولم يأبهوا بالمظاهر . ثم إنهم كانوا أيضا أكثر قوة ومطالبهم قليلة ، وجعلهم الوعد بالجنة لا يرهبون الموت . وأخيراً فإن قادتهم ، وعلى رأسهم خالد المقدام ، وكذلك عمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص تحلوا بصفات لا يمكن أن يفخر بها أى قائد من قادة الفرس أو البيزنطيين .

وأيقظت مطالب الظروف الجديدة عند العرب مواهب جديدة ، كما أن تفتح أذهانهم نحو هذه الظروف قد خلق عندهم إحساساً بأشياء جديدة أيضا . فاستكمل العرب أثناء حروب الفتوح ما كان ينقصهم فى النواحى الحربية ، وذلك على حين أنهم وجدوا ما افتقروا إليه فى النواحى العقلية لدى البلاد التى فتحوها ، حيث كان فى ميسورهم أن يتعلموه من أهلها .

أما من الناحية الحربية فظهرت منذ أول الأمر الحاجة إلى مراكز حربية

دائمة . ويعزى إنشاء هذه المراكز إلى عمر ، الذى تنسب إليه كذلك سائر الأعمال الإدارية ، إذ حضر عمر إلى الشام بنفسه سنة ١٦ هـ ، بعد سقوط بيت المقدس ، وقسم القوات إلى أجناد ، تتألف كل منها من عدة قبائل ، وخصص لكل منها معسكرا دائما ، كان عبارة عن مركز معين . واستخدم عمر فى هذا الصدد المراكز الحربية الدائمة ، التى وجدت من قبل فى الشام ، وهى : دمشق ، وحمص ، وطبرية واللد ، والرملة .

أما فى العراق ، فقد نشأت مراكز عسكرية جديدة ، هى البصرة ، والكوفة . وعندما أقام الجند مع عائلاتهم ، بنوا معسكراتهم فى بادئ الأمر من القصب ، ولكن سرعان ما استبدلوا بتلك الأكواخ المصنوعة من القصب منازل مبنية من اللبن . وقد تطور هذان المعسكران الحربيان إلى مدينتين عامرتين ، غدا لهما أثر فعال فى ازدهار الثقافة الاسلامية . أما فى مصر فقام معسكر جديد فى المنطقة المجاورة لحصن بابليون أو قصر الشمع ، وهو الذى غدا مدينة الفسطاط ، التى ظلت عاصمة مصر حتى اختطاط القاهرة سنة ٩٧٣م ، ثم عرفت الفسطاط فيما بعد بمصر القديمة واندمجت فى القاهرة الجديدة .

غير أن السماح للجند بالإقامة مع عائلاتهم فى معسكرات حربية دائمة أدى إلى نشأة ميل إلى الاستقرار عند أفراد الجيش ، وتجلى ذلك الميل فيما نشب بينهم من سباق على حيازة الأرض التى تحت أيديهم . وكان السهل الفسيح الذى يرويه دجلة والفرات والذى شاهد الغزو الإسلامى الأول ، يبدو فى أعين العرب جنة تستهوى أفئدتهم . إذ أدرك العرب ما تضمه أرضه من خيرات وافرة ، وهى أول ما اجتذب المثنى ابن حارثة إلى فتح العراق . ولذا لم يكن عجبا أن يطالب الجند باقتسام الأرض فيما بينهم والاستقرار فيها ، إذ تذكر الجند وعود عمر وطالبوه بتحقيقها ، كما طالبوه بأن تكون الأنصبة فى الأرض بنسبة قوة القبيلة وأهميتها . واقترح آخرون اعتبار

أرض هذا الإقليم كله غنيمة توزع وأهلها على الجند الفاتحين بالتساوى ، بعد اقتطاع الخمس للدولة . ولو أن عمر استجاب لهذه المطالب ، لوقع لكل محارب ثلاثة من الفلاحين، كما لو أن البلاد قسمت بين المسلمين لتحول الجيش إلى طبقة ملاك للأراضى ، ولنتج عن ذلك أن تصبح البلاد أرضا بورا خربة بسبب إهمال ملاكها القدامى ، وتفشى الرق فيها ، وامتصاص الفاتحين لها . ولكن عمرا اتخذ قرارا كان له أبعد الأثر فى تطور الدولة الإسلامية ، إذ قرر اعتبار الأرض المفتوحة ملكا للدولة ، لا يمكن لأحد أن يتصرف فيها فى أى وقت من الأوقات (أرض فيء) وقرر كذلك وضع المحصول تحت تصرف الدولة من أجل الصالح العام . ولذلك ظلت الأراضى فى العراق ومصر بأيدى أهليهما ، حيث حرمت الدولة على المسلمين الاشتغال بالزراعة ، كما أن عمر لم يسمح لعمرو بن العاص والى مصر بأن يبنى لنفسه منزلا فى معسكر الفسطاط .

غير أن الجند وجدوا تعويضا سخيا عن ملكية الأرض فى الثروات الهائلة التى تدفقت عليهم فى مظاهر شتى من الفتوحات . ولاشك أن الخلفاء والصحابة اتبعوا سنة الرسول فى توزيع الفائض من دخل الدولة على المؤمنين . وزادت الثروة الواردة من البلاد المفتوحة باضطراد ، حتى غدا النصيب الذى ناله كل مسلم يفوق بكثير الزكاة التى كان على المسلمين أداؤها . وطالب بعض الناس فى عهد الخليفة الأول بإلغاء الزكاة نظرا لما ورد إلى بيت المال من الخير الكثير ، وحسبوا ذلك أمرا يسيرا . ولكن لما كانت تقدم للعرب أرزاق من الطعام ، فقد انتهت الدولة إلى اقتطاع قدر الزكاة الواجب على كل عربى أداؤه من رزقه المقرر . وقدرت نسبة الزكاة الواجبة بمحصول قطعة معينة المساحة من الأرض . وقومت الزكاة غالبا بالجمال والأغنام ، وكان هناك منذ عهد النبى مرعى للدولة خاص بالحيوانات التى تقدم مقابل الزكاة . وأحب البدو إرسال حيوانات مسنة تخلصا من ذلك الفرض ،

وهذا أمر طبيعى ، ولم ترفض أشباه هذه الحيوانات من الناحية العملية ، مع أنها لا تقبل من الوجهة النظرية . ويعزى ذلك إلى أن الزكاة أصبحت فى تلك الفترة من الفتوح ضريبة كمالية تقريبا ، بسبب الدخل الهائل الذى جاء من البلاد المفتوحة[1] .

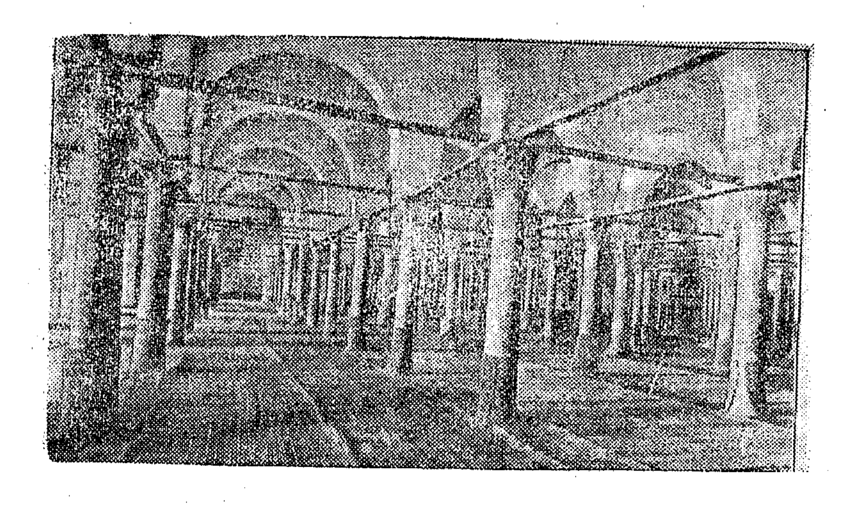
وسمح لأهل الذمة — اليهود والمسيحيين — اقتداء بما فعله النبى ، أن يتمتعوا بالحرية التامة فى العبادة فى ظل حماية الأمبراطورية الإسلامية مقابل دفع ضريبة مناسبة.[2] أما باقى الأمم من الوثنيين فكان لابد من قبولهم الإسلام دون قيد أو شرط . ولكن سرعان ما منح العرب ديانة فارس امتيازات مشابهة لتلك التى قررتها الشريعة لليهودية والنصرانية ، مقابل تمتع الفرس بحماية الدولة . وبسط عثمان هذه الامتيازات ، وبنفس المبادئ السالفة على البربر ، سكان شمال أفريقيا ، إذ سمح لهم بحرية العبادة مقابل دفع ضريبة . ولكن سرعان ما اعتنقت هذه الشعوب الإسلام وطالبت بالمساواة مع غيرهم فى الدولة . وترتب على ذلك اصطدام المصالح بين العرب والمسلمين من غير العرب ، إذ سبق أن قرر عمر ألا يسمح للأجنبى بالوقوف على قدم المساواة مع العرب .

---

(١) يحاول المؤلف فى بعض الفقرات الإمعان فى بيان حب العرب للنواحى المادية . ولكنه يجانب الصواب فى ذلك ، لأن العرب ولا سيما فى صدر الإسلام كانوا على جانب عظيم من التقوى ، وشدة التمسك بالتعاليم الاسلامية ، وتنفيذها عن إخلاص تام (المترجم).

(٢) المقصود بهذه الضريبة هى الجزية ، وإن إغفال المؤلف لهذا اللفظ وهو « الجزية » محاولة مرة أخرى للتجنى على العرب . والمعروف أن أهل الذمة وغيرهم من الناس الذين دفعوا الجزية تمتعوا مقابلها بحماية الدولة ، وإعفائهم من الخدمة العسكرية . فيروى أن أبا عبيدة قائد العرب فى الشام حين علم بحشد الجيوش البيزنطية كتب إلى عماله فى المدن يأمرهم بأن يردوا على الناس ما جبى منهم من الجزية ، وقال للناس : « رددنا عليكم ما أخذنا منكم » وذلك حتى يتم النصر للسلمين ، ويصبح أخذهم للجزية بعد ذلك عن صدق ، أى مقابل قيامهم بواجب حماية أهل الذمة . وفى ذلك الدليل القاطع على سمو نظام الجزيه فى الإسلام . (المترجم)

وإذا أردنا أن نعرف كيف أن عمر أدرك أهمية هذا الهدف الأخير ، وهو إطلاق سيادة العرب على من سواهم فى دولة الإسلام ، فما علينا إلا أن ننظر قبل كل شىء إلى التدابير التى اتخذها لتطهير بلاد العرب من سائر الأديان الأخرى غير الإسلام . فطرد من شبه الجزيرة بضربة واحدة يهود خيبر ، ذوى المهارة فى الصناعات ، وكذلك يهود ونصارى نجران . ونزح أولئك اليهود إلى تيماء ووادى القرى وأريحة ، على حين استقر النصارى فى العراق والشام .



شكل ٧ — منظر من الداخل لجامع سيدى عقبة بالقيروان

وهكذا أصبحت بلاد العرب والإسلام إلفين متآلفين ، وغدا العربى سيدا ولا سيما أن عمر قرر ألا يجوز لعربى أن يصير عبدا سواء بالبيع أم بالأسر .

ونصت المعاهدة التى أبرمها نصارى الشام ، والتى وافق عليها عمر ، ثم عدل فيها ، على ألا يسمح للمسيحيين بتعليم أبنائهم القراءة ، وأن يقرعوا أجراسهم فى هدوء ، ويؤدون صلواتهم بصوت منخفض إذا أقام المسلمون بالقرب منهم »

وكذلك تميز المسلمون فى ملبسهم عن المسيحيين[1] .

وظل العرب وحدهم يختصون بالعطاء الذى وزع طبقاً للقواعد التى وضعها عمر. فكان كل عربى حر أو مولى ، وكذلك النساء والأطفال يتناولون عطاء ثابتاً من الدولة. وحددت مقادير العطاء على أساس صلة القربى للنبى ، والسبق إلى اعتناق الإسلام والخدمات الحربية أو المعرفة الخاصة بالقرآن . فكانت عائشة أم المؤمنين على رأس القائمة وتتناول عطاء قدره ١٢٫٠٠٠ درهم ، والأطفال الصغار فى نهاية القائمة ويتناول كل منهم مائة درهم .

ولكن بدأت الفوارق الاجتماعية والمادية تزول بين العرب وأهالى البلاد المفتوحة ، إذ لم يأخذ العرب مقاليد إدارة البلاد المفتوحة فى أيديهم ، وتركوا هذه الإدارة لرعاياهم المثقفين ، الذين اعتمدوا عليهم كذلك فى نواحى أخرى تنظيمية . فرأى العرب أن توزيع الأعطية والأرزاق أمر يحتاج إلى ثقافة ومران ، ولاسيما أنه انقضى ذلك العهد السعيد الذى قال فيه عمر: «أيها الناس ، قد جاءنا مال كثير (من البحرين) فإن شئتم كلناه كيلا ، وإن شئتم أن نعده عدا». وكان على عمر أن يطبق نظام البيزنطيين المالى على شئون المالية الإسلامية ولا سيما أن أهل البلاد من المسيحيين والفرس ، الذين عملوا فى الدواوين التى أسسها عمر ، احتفظوا بدفاتر الحسابات بلغاتهم اليونانية والفارسية . أما حسابات المدينة

---

(١) عمد المؤلف إلى مهاجمة الخليفة عمر بن الخطاب استنادا إلى وثيقة مزورة ، مازالت موضع الشك حتى من جانب المستشرقين أنفسهم . إذ حاولت الأجيال المسيحية فى منتصف القرن الخامس الهجرى لصق بعض القيود بشخصية عمر ، يرى بعضهم أنه الخليفة عمر بن الخطاب ، على حين يرى بعضهم الآخر أنه الخليفة عمر بن عبد العزيز . وفى هذا الجدل والخلاف بين المسيحيين أنفسهم ما يدحض هذه الوثيقة المزعومة . وفضلا عن ذلك فإن المؤلف نقل بعض فقرات الوثيقة بطريقة مبتورة . فمثلا جاء فى الوثيقة أن مسيحيى الشام تعهدوا بعدم تعليم أبنائهم القرآن ، فحور المؤلف هذه العبارة إلى تحريم تعليم أبناء المسيحيين القراءة فقط. وفى ذلك دليل آخر على تجنى المستشرقين المغرضين على الإسلام ورجاله . (المترجم)

فدونت باللغة العربية ، وإن كان ذلك قد جرى أيضا وفق نظام أجنبي . ولم يكن ذلك عسيرا على العرب ، الذين كانوا أمة تجارية خبيرة بالحساب .

وحدثت تعديلات أخرى فى الادارة على نحو ماحدث في المظاهر الإدارية السالفة . إذ غدا من الضرورى على عهد الخلفاء الأول أنفسهم تقسيم الامبراطورية تقسيما إداريا ليس فى الولايات فحسب ، وإنما فى بلاد العرب كذلك . فنصب عمال مخصوصون لمكة والطائف وصنعاء ونجران والبحرين ، على حين أقيم عامل خاص كذلك لواحة دومة الجندل . وأحدث عمر تغييرات عديدة أيضا عندما أنشأ مراكز إدارية جديدة مثل البصرة والكوفة ، وبعث الحياة فى مراكز أخرى قديمة . وكانت نتيجة ذلك تعديل ثيوقراطية الإسلام ، إذ استلزمت الأوضاع الجديدة توسيع دائرة التخصص فى الوظائف . ذلك أن الوالى كان فى مبدأ الأمر مثل الخليفة ، حاكما وعاملا للخراج وقائدا عاما وقاضيا . ويلاحظ أن عمر عين قضاة مخصوصين للمراكز الحربية الهامة مثل البصرة والكوفة ودمشق وحمص ، على حين قام الخليفة نفسه فى المدينة بمهمة القاضى الأعلى . وكان عثمان أول من عين قاضيا ليساعده .

وفى الوقت الذى أخذ فيه العرب على نطاق واسع النظم القائمة فى الولايات ، ظهر فى المدينة أولى مدارس التشريع الإسلامى البحت ، إذ عاش هناك الصحابة الذين اكتنزوا كل كلمة بدرت من الرسول ، وتناقلوها بعناية لا يشوبها الشك . وكان كل حديث من تلك الأحاديث كنز لا يقدر بثمن ، تواترته الأجيال خالفا عن سالف مع أسماء الرواة . وغدت تلك الأحاديث إلى جانب القرآن المنابع الأصلية للتشريع الإسلامى . وقد اختلطت الأحاديث الصحيحة أثناء تواترها على ألسنة الرواة مع أحاديث مكذوبة كثيرة .

ويعتبر ابن مسعود وابن عباس مؤسسي مدرسة المدينة . أما ابن مسعود

فكان خبيراً بحياة النبي وآرائه ، على حين كان ابن مسعود خبيراً بميدان الآثار ، أي الأحكام الفقهية للخلفاء الثلاثة الأول ، وذلك مع تفقه كل منهما فى القرآن . ويعد ابن مسعود كذلك واضع علم تفسير القرآن ، حيث ارتبط التشريع والفقة فى أول أمرهما أحدهما مع الآخر أشد الارتباط . فكان القرآن مصدر كل تشريع وأحكام ، وأصبح أول شيء يحتاج إليه القاضى وطالب الدين كذلك هو معرفة نص القرآن وتفهمه بصفة عامة ، حتى غدا العالم بالقرآن فى ذلك العصر فقيهاً ومشرعا فى نفس الوقت . ولذا كان مشرعوا المدينة ، وهم من تلامذة مدرسة عباس ومسعود يعدون فى الحقيقة فقهاء كذلك .

وامتد الاهتمام بنص القرآن إلى الناس عامة ، وذلك تمشيا مع روح الإسلام الديمقراطية ، التى استهدفت تأهيل الناس جميعاً لقراءة كتاب الله ، واهتم الناس منذ عهد مبكر « بالثقافة العامة » ، التى لم تتعد إذ ذاك غير قراءة القرآن . وإذا كان ذلك جانب واحد من الثقافة إلا أنه كان أمراً معقولا فى القرآن السابع الميلادى . ثم إن تأسيس المسلمين لمدارس هذا النوع من « الثقافة العامة » ليس فى بلاد العرب فقط ، وإنما فى البلاد المفتوحة كذلك ، ينهض دليلا على أداء مهمة لم تقم بمثلها العصور القديمة الكلاسيكية أو عصر المسيحية الأولى .

ومن ثم شاع الاهتمام بنصوص القرآن والإلمام بها ، حتى إنه على عهد عمر أخذ جند العراق وجند الشام الذين التقوا فى أرمينيا يتجادلون فى نصوص معينة . ولذلك اضطر الخليفة عثمان إلى إصـــدار نسخة رسمية للقرآن ، وعهد الخليفة إلى زيد بن ثابت ، الذى كان كاتبا للوحى بإعداد هذه النسخة الرسمية . وقام زيد بتلك المهمة على أحسن وجه ، فجمع نصوص القرآن ، ورتبها على نسق لا يقبل

الشك ، ثم كتب منها عدة نسخ ، أرسلت إلى عواصم الولايات للإرشاد والاستعمال على حين جمع ما عدا ذلك وأحرق .

وبذلك نشأ فى قلب بلاد العرب ، نتيجة الإسلام ، الدوافع التى أدت إلى ازدهار الثقافة وترعرها فيما بعد . وإلى جانب ذلك كان أمام العرب ثقافة أهل البلاد التى فتحوها ، وهى فارس والشام ومصر وأفريقيا ، وهى الولايات التى كونت الدولة الإسلامية فى ذلك الوقت . فأخذ العرب يغترفون من هذه الثقافات ما شاءوا وتمثلوها ، ثم أنشأوا من ذلك كله ثقافة خاصة بهم . وكانت ثقافة هذه البلاد ذات طابع يونانى وسريانى وقبطى وفارسى ، نستطيع أن نجمل وصفها بقولنا أنها ثقافة هلينية مسيحية .

ويعد تمثل المسلمين لهـذه الثقافات أمراً هاماً للإسلام وللهلينية كذلك ، إذ بعثت الثقافة الهلينية وانتعشت بسبب تغير الظروف المحيطة بها ، ولاتصالها بالعرب واحتكاكها ثقافيا مع ديانة أخرى ، تتشابه معها فى التفكير والميول . وبينما كان ذلك هو التأثير الذى أصاب الهلينية ، فإن العرب من ناحية أخرى تأثروا بثقافة الأجناس التابعة لهم . فإذا كان العرب قد زودوا الهلينية بلغتهم وهيأوا لها فرصا للانتشار الواسع ، فإن الهلينية ردت ذلك الدين للعرب بمنحهم ثروتها العلمية والفنية .

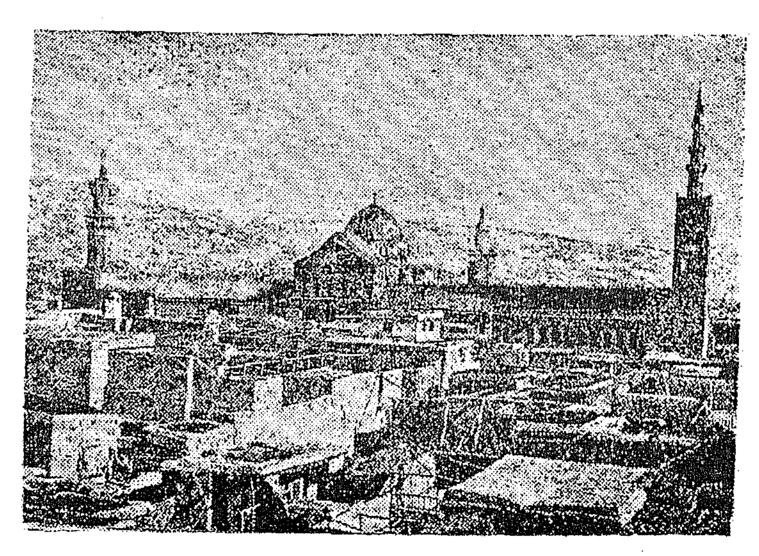
وقبل أن يلم العرب بالثقافة الهلينية كانوا قد ألفوا منذ زمن طويل ، كما هو طبيعى ، الفن الهلينى وعمائره . ويستطيع المرء أن يتبين جليا التفاعل والتجاوب بين الإسلام والنصرانية فى ميدان الفن . ذلك أن جيوش الإسلام رأت فى المدائن ودمشق وبيت المقدس ومصر أعمال الفن من عمارة ونحت ، وشاهـدت بدائع

الصناعات كالنسيج والصياغة ، فأيقظ ذلك كله فى نفوس العرب الرغبة فى تقليدها وجلبها لأنفسهم . ذلك أن العرب على النقيض من الشعوب الهمجية ، تجنبوا التخريب ، وحافظوا على تلك الكنوز الفنية ، وأضفوا عليها طابعهم الخاص .

ووجد العرب فى دمشق كنيسة القديس يوحنا ، التى كان لها تأثير عميق فى نفوسهم جعلهم يتخذونها مقرا لصلاتهم . وكانت بناء معماريا فاخرا ، مشيدا على أطلال معبد وثنى ، ولها باب عظيم ، تتكون سدته من أعمدة كورنثية تعلوها تيجان ثمينة الزخرفة ، وتغطى قبابها صحن الكنيسة ، على حين تغطى الفسيفساء المذهبة المتلألئة جزءا من جدرانها الداخلية . وأخذ المسلمون الأجزاء الشرقية لأنفسهم ، وأصبحوا يمرون مع المسيحيين من باب واحد لأداء الصلاة فى القسم الخاص بهم . ونقب المسلمون فى بيت المقدس عن المسجد الأقصى (معبد سليمان من قبل) الذى تحدث عنه النبى ليلة أسرى به . وشيد عمر عند المكان الذى عرج منه الرسول مسجدا .

وفى مصر أقام المسلمون مسجدا خاصا بهم بمساعدة مهندس نصرانى ، إذ كانوا مرتبطين بمعاهدة مع المسيحيين ، تقضى بترك كنائسهم وعدم التدخل فى شئون عبادتهم ، ولذا نشأ مسجد عمرو بالفسطاط . أما مساجد المغرب والأندلس فسوف نتكلم عنها فيما بعد .

وفى الوقت الذى ازدهرت فيه الثقافة العربية فى البلاد المفتوحة ، واستفادت من المؤثرات الأجنبية ، انتعشت فى مكة والمدينة من جديد الأحقاد العائلية والقبلية القديمة المكبوتة . ففى عهد عثمان قبضت أرستقراطية مكة على دفة الدولة وغدا لها السيادة فى المدينة كذلك . وفزع المحاربون القدامى من صحابة النبى لرؤية روح جديدة نامية تميل إلى الأمور الدنيوية بشكل واضح ، وأنفوا



شكل ٨ — جامع دمشق (الجامع الأموى) .

من زحفها لتمكن لنفسها فى المدينـة المقدسة . ذلك أن مكة والمدينة أصبحتا منذ تدفق الثروة الهائلة إليهما موطن اللهو والمرح . فلقيت الموسيقى هناك جواً صالحاً ، حتى غدت مكة والمدينـة حول منتصف القرن الأول الهجرى مدرسة العرب فى الموسيقى والغناء . واشترى أثرياء مكة قيانا من يونانيين وفرس بمبالغ لا يمكن تصديقها . وجاء عن الفرس كذلك فن الغناء ومصاحبته الآلات الموسيقية .

وسار الشعر الرقيق خطوة بخطوة إلى جوار الرفاهية المتزايدة . فينم شعر مكة فى ذلك الوقت عن روح مرحة ، وفاق مافى هذا الشعر من التشبيب والنسيب أناشيد المنيسنجر والتروبادور . وأصبحت بلاد العرب مركز الفن فى الدولة الإسلامية وموطن الموسيقى والغناء .

غير أن رد الفعل الذى قام به الأتقياء أدى إلى قتل الخليفة عثمان ، وقيام

نضال مرير من أجل الخلافة . فجاهد كبار الصحابة للحصول عليها ، ونقل أحد الطامحين إليها ، وهو علي ، مركز الإدارة من المدينة إلى الكوفة . وهكذا وقف تيار الفتح ، وأصبحت الثورات تهدد جميع أرجاء الدولة . وصارت الخلافة رهن القوة ، ومن ثم كان النصر حليف معاوية ، سليل أعظم بيت في مكة ، ووالي الشام إذ ذاك ، إذ أدى فوزه الى انتصار الروح العربية القديمة ، وهي روح مكة .

الفصل الرابع

الأمويون

قال العرب : إن مقتل عثمان فتح باب النزاع الذى لم يغلق مرة ثانية . ويرجع السبب الحقيقى فى ذلك إلى الخلاف بين كل من النظرة الإسلامية والنظرة العربية الخالصة إلى الموقف السياسى الذى نجم عن موت عثمان . ذلك أن الرسول لم يتخذ أية تدابير لمن يخلفه ، على حين غدت الحاجة ملحة بعد وفاته إلى قيام خليفة ، ولاسيما أنه كلما اتسعت دولة الإسلام كلما زادت تلك الحاجة خطورة . فأصبح كل مسلم يرى أن من واجبه معالجة مسألة الخلافة، وكذلك مدى سلطة الخليفة . وإذا كان كل مسلم يعتبر صالحاً لأن يلى الخلافة ، فإنه لم ينتخب من بين المسلمين طبعاً إلا أعظم الناس مكانة . وكانت تلك العقيدة تتفق مع روح الإسلام الديمقراطية ، ولكنها لم تكن الرأى السائد عند المسلمين . فلم يتمسك بهذا الرأى غير أهل المدينة فقط ، على حين ظل الباقون عربا بما تحمله تلك الكلمة من معنى قديم ، إذ بقيت آراؤهم ثابتة نحو واجباتهم العائلية والقبلية ، ولم يجدوا شرطا يتوافر فى من يلى الخلافة غير القرابة الشديدة للرسول ، أو كونه سليل أعظم الأسر العربية مكانة . وكان ذلك هو مجرى التفكير فى بلاد العرب ، وفى مكة بصفة بارزة عاما .

والآن حدث أن اختار أهل المدينة أنفسهم عثمان خليفة ، ووقع اختيارهم عليه باعتباره شيخاً تقياً ، مسناً ، وزوج بنت النبى . ولكن أهل مكة نظروا إلى عثمان على أنه رجل من أشهر بيوت مكة ، وهو بيت أمية . وقد تأثر عثمان

روح أهل مكة فعلا ، وعمل من أجلها • فرأى أن ملء المناصب الكبرى فى الإدارة بأقاربه أمر طبيعى • على أن تلك الروح الحزبية المتعصبة أثارت الغضب ، وراح عثمان ضحية حنق جماعة من أهل المدينة ، ضمت غلاة المؤمنين ، الذين برح بهم الألم •

ومن ثم ظهر فى الدولة نفسها خط تقسيم عميق بين حزب أهل المدينة ، بعقيدته الديمقراطية عن الخلافة ، وبين حزب أهل مكة بنظرته الجامدة إلى العائلة والقبيلة • وأدت هذه الآراء المتباينة إلى الحروب الدموية التى تلت مقتل عثمان ، والتى صرفت قوة الإسلام ، مدة ثلاثين عاما ، عن الحدود وبددتها فى النضال الداخلى على أرض الوطن •

ذلك أن مقتل عثمان آذن بالحروب الأهلية ، التى كان شعار أهل المدينة فيها لعنة عثمان ، على حين نادى أهل مكة فيها بالمطالبة بدم عثمان . وانتهى الدور الأول من هذا النضال بفوز على ، مرشح المدينة ، على طلحة والزبير ، من أبطال مكة • ولكن الدور الثانى من الحرب ، والذى نشب بين على ومعاوية والى الشام ، كان أهم حدث فى تطور الإسلام ، إذ ظهر أثناء هذا النضال حزبان فى جيش على ، سرعان ما اكتسب كل منهما لونا دينيا ، وظلا إلى هذا اليوم مذهبين دينيين • وانشق أحدهما على جيش على ، وألح فى تعديل النظرية الإسلامية القديمة ، مناديا بحق انتخاب الخلفاء وعزلهم • أما الآخر ، وهو الموالى لعلى ، فأكد حق الوراثة فى تولى الخلافة ، ومهد بذلك الطريق لمبدأ نظام الأسرة الرتيب ، الذى نادت به الشيعة ، والذى ما زال ساريا إلى اليوم فى فارس والعراق .

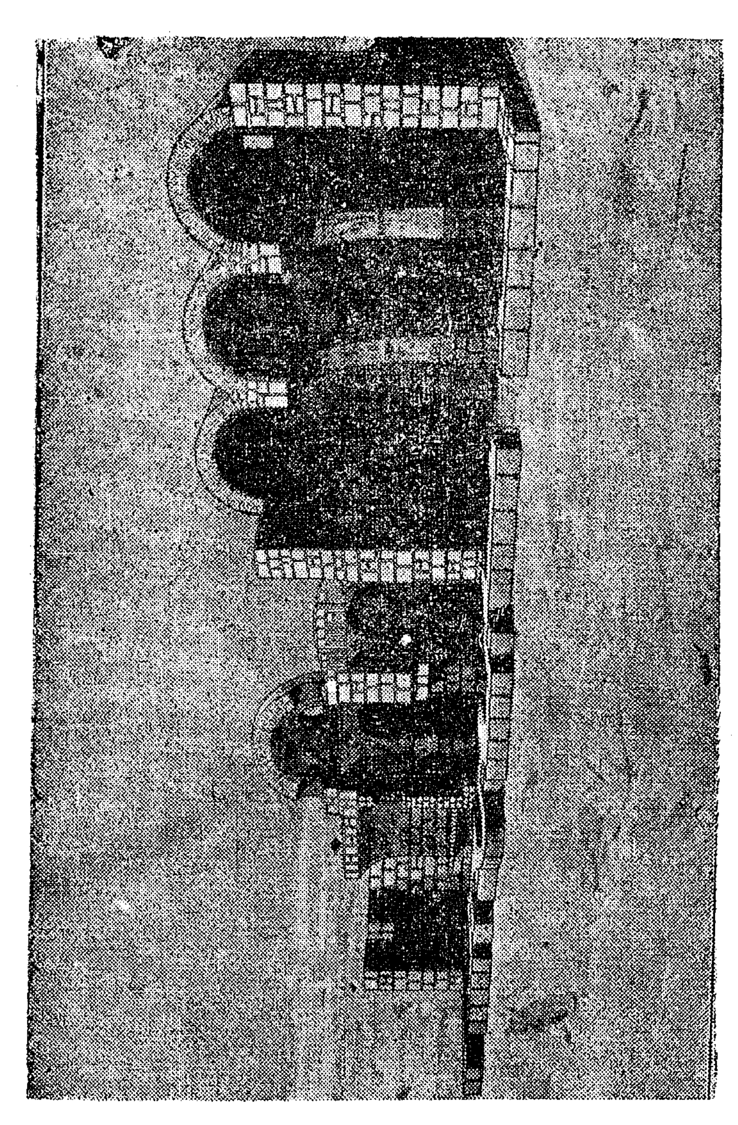
وفى سنة ٦٤١ م خرّ على صريع خنجر أحد القتلة . وفى سنة ٦٨٠ م قتل ابنه الحسين فى كربلاء ، التى أصبحت منذئذ أقدس مزارات الشيعة . ومع أن الأمويين صاروا بعد موت على الحكام الحقيقيين للدولة الإسلامية ، فإنه كان

عليهم متابعة الحرب ثلاثين سنة أخرى ليضمنوا لأنفسهم السيادة التامة ، إذ لم يكد يقضى الحسين عن المسرح حتى نصب ابن الزبير نفسه خليفة ، منافساً للأمويين . ونجم من ذلك أن كرس الخليفة الأموى عبد الملك كل قوته للقضاء على عبد الله ، وتم له ذلك سنة ٧٢ هـ (٦٩٢م) ، ولكن لم يستقر حكم الأمويين إلا سنة ٧٣ هـ أى بعد ثلاث وثلاثين سنة من النضال .

والآن نلقى نظرة على الأحوال الداخلية للدولة :

لقد زال بابن الزبير آخر من كان يمثل اتجاه أهل مكة القديم . وحول ذلك الوقت أخذت المدينة نفسها تفقد أهميتها سريعاً . وبعد عشرة سنوات أخرى حان قدرها المحتوم ، عندما اعتقد الحاكم الأموى فيهـا أنه يمكن تهدئة كراهية الأتقياء بها ، أو إزالتهـا بتوثيق الرابطة مع أصحاب السلطان . فأرسل سنة ٦٢ هـ (٦٨٢م) تسعة من كبار الأنصار إلى دمشق ، حيث استقبلوا بالحفاوة، وأغدقت عليهم العطايا الفاخرة ، وأعيرت شكواهم آذان صاغية . ولكن برغم ذلك لم ير الزائرون الأتقياء فى الخليفة سوى رجل ماجن ، أسير الشراب والراقصات مغرما بالكلاب والمجون .

وهكذا وصف أولئك الأتقياء الخليفة لأهل المدينة . وسرعان ما تلا ذلك قيام أهل المدينة بثورة ، طردوا فيها الأمويين وأشياعهم من بينهم . على أن رد الفعل جاء على عجل ، إذ ظهر جيش مكون من ١٢٫٠٠٠ رجل أمام أسوار المدينة . وبعد قتال عنيف انتصر الأنصار والمهاجرون ، واتسم ذلك الانتصار بالتخريب البشع الذى أصاب المدينة ، وبالمذبحة الدامية التى حلت بأهلها . ولذا لم تعد المدينة منذئذ المركز الثقافى والروحى للاسلام ، وغربت مع شمس المدينة شمس الإسلام الحق الذى أقامه النبى .



شكل ٩ — أطلال قصير عمره « أحد قصور الأمويين ببادية الشام »

وفى نفس الوقت اقتضت الضرورة أن تسير الجهات العديدة التى تكونت منها الامبراطورية ، وكذلك الأمم الكثيرة التى دخلت فى نطاقها ، وجميع المدن الهامة أيضا ، أن تسير فى تطورها فى طرق مستقلة بعضها عن البعض الآخر ، ولم تلتق هذه الاتجاهات وتتوحد فيما بينها إلا فى عصر متأخر .

أما مكة فبدأت قبل الحكم الأموى تنفق الثروة الطائلة التى تجمعت فيها على مظاهر البهجة والملاهى ، ثم توغلت فى ذلك الطريق عميقا على عهد الأمويين ، حتى انتهى بها المطاف إلى أن أصبحت الموطن الرئيسى للهو والمرح فى الدولة الإسلامية . وأضحت مكة فضلا عن ذلك موطن الموسيقى والغناء ، حيث وجد فيها التيار المتدفق من فارس جوا موائما . وكانت مكة أشد البلاد استقبالا لهذا الفن ، إذ أنفق أبناء أثرياء مكة مبالغ لا يمكن تصديقها على الموسيقيين من الجنسين ، وتطلع بلاط دمشق إلى مكة للحصول على من يحتاج إليه فى هذا النوع .

ولم تتخلف النساء عن الرجال فى ميدان الغناء وما صاحبه من مظاهر . ثم إن أولئك النسوة ابتكرن طرز الملابس ، وحينما ورد ذكر الملابس نجد وصفاً دقيقاً لها وتقريظا عظيما . ولدينا أخبار عن إحداهن ، اعتادت أن تقيم حفلات استقبال وسمر للضيوف ، وتظهر فى أبهى هيئة ، وأصباغ تلفت الأنظار ، وتلبس لكل مناسبة لباساً خاصا ، كما اعتادت أن تجعل عبيدها يرتدون حللا ذات ألوان مبرقشة .

ويبين لنا الدور الذى لعبته المغنيات ، خطأ القول الشائع الذى يرى أن مكانة المرأة هبطت فى ظل الاسلام واستعبدت . فكانت مكانة المرأة فى الحقيقة عالية ، وبقيت حريتها غير محدودة ، والاختلاط بهن شائع فى الحياة الاجتماعية ، حيث كان من المألوف أن يستقبل النساء ضيوفهن من الرجال دون قيد . وعدا الجهات التى تأثرت فيها العروبة بعادات آسيا الوسطى ، ظلت تلك المعاملة النبيلة قائمة دون

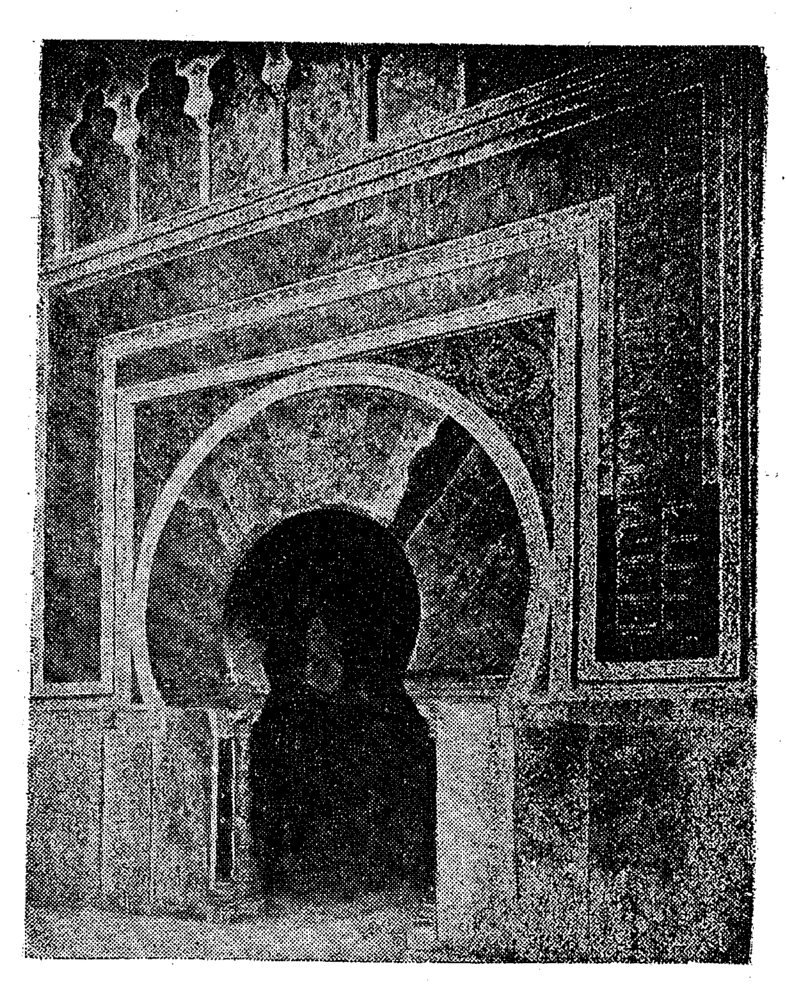
أن تمس ، كما فى أسبانيا مثلا . فكان يعد قتل المرأة أو مجرد إصابتها من الأمور الوضيعة جدا ، كما أن القانون الاسلامى القديم حرم قتل النساء وأطفال الأعداء ، حتى ولو كانوا من دين غير الإسلام . وعبر عن ذلك شاعر أموى فى هذا القول الجميل :

كتب القتل والقتال علينا على الغانيات جر الذيول

وفى الوقت الذى لم يعرف فيه الغرب شيئا من شعر الغزل ، بلغت بلاد العرب الذروة فى هذا الميدان . وكان أمير هذا الضرب من الشعر هو عمر بن أبى ربيعة ، الذى روى شعره على كل لسان . وقد وصلتنا بعض أشعاره ، من حسن الحظ ، ففى لغة تفيض بالعاطفة الجامحة ، وفى عذوبة رقيقة تشبب بالنساء تشبيبا لم يتناول أعظم شهيرات عصره فحسب ، وإنما شمل كذلك أميرات البيت الأموى أنفسهن . فنجد فى شعره سرورا بالأمل ، ونسمع فيه لهجة تشبه أشعار هنرخ هينه (Heinrich Heine) .

وحول نهاية الحكم الأموى ، عندما انحط الاختلاط البرىء بين الجنسين ، وغدا غراما وخلوات ، نرى فجأة ظهور « نظام الحريم » وعهد الخصيان . غير أن الحقيقة التى تذكر أن تجارة الخصيان قام بها البيزنطيون ، تدل بصورة واضحة على أن الاسلام لم يكن مسئولا وكذلك العروبة عن المكانة التى وصلت إليها المرأة فيما بعد . إذ ظل مركز المرأة عاليا فى مكة ، موطن العروبة ، وذلك برغم تقلب الأيام . ولكن يجب ألا ننسى أن العروبة أخذت عن الاسلام حق التمتع بما فى الأرض من الطيبات .

على أن مدن العراق التى تطورت عن المعسكرات الدائمة ، ولا سيما البصرة والكوفة ، فكانت تختلف تمام الاختلاف عن مدن العرب التجارية القديمة ، التى لم تتأثر إلا قليلا بتغير الظروف . إذ ترتب على حملات الفتوح هناك ظهور عالم جديد ،



شكل ١٠ — محراب جامع قرطبة

حيث آثار احتكاك العرب بالشعب الفارسي الموهوب مشاعر العرب ، وخلق منهم ، إذا صح القول ، جنسا جديدا له مميزاته الخاصة . ثم إن التطور السريع الذى أصاب هاتين المدينتين ، حيث بلغ سكان كل منهما حول سنة ٥٠ هـ ، ما بين ١٥٠,٠٠٠ و ٢٠٠,٠٠٠ ، وتمثلهما للمؤثرات الفارسية أدى إلى قيام حركة ثقافية حية ، وغدا

البصريون والكوفيون أوفر المسلمين نشاطا ذهنيا . وكذلك أدى مركز البصرة والكوفة الجغرافى والثقافى ، وتوسطه بين المدينة ودمشق ، إلى إيقاظ الشعور بالشخصية بين أهليهما، وإستمسا كهما بالاستقلال .

وإذا كان أهل البصرة والكوفة قد استمسكوا فى الميدان السياسى بحرية إبداء آرائهم ، فإنهم تعلقوا كذلك بالاستقلال فى ميدان الثقافة والعلم ، ومن ثم بدأ هناك قبل أى مكان آخر الاهتمام بدراسة اللغة العربية دراسة علمية . وكان الدافع على ذلك النشاط اللغوى والفقهى الاتصال بين الفرس والعرب ، والاختلاف من ناحية أخرى بين لغة القرآن واللغة الدارجة . ولا يمكن أن نعرف على وجه التحقيق أولئك الذين بدأوا بدراسة فقه اللغة العربية . ومن المحتمل أن الأجانب والفرس بصفة خاصة قاموا بوضع الأساس فى هذه الدراسات ، ولكن يجب أن نلاحظ على أية حال ، أن ذلك ما كان يتم لهم دون معونة صادقة من العرب .

ويستلفت نظرنا فى البصرة كذلك ، أوائل القرن الثانى الهجرى ، ظهور ناحية أخرى من النشاط العقلى . فكانت تعقد جلسات تنظر فيها وتناقش المسائل السياسية والعربية الجارية ، فتجادلوا فى الإسلام والبوذية وفى مسألة القضاء والقدر ، ووضع واصل بن عطاء أسس مدرسة عقلية . ولكن من المؤسف أننا لا نملك إلا قدراً ضئيلا جداً من المعلومات عن أوجه النشاط الثقافى الإسلامى الحر فى ذلك العهد المبكر . ولكن ذلك القدر الضئيل يدل دلالة تامة على أن الظروف والملابسات أيقظت فى النفوس شوقاً إلى المعرفة والسعى وراء الحقيقة .

وفى الوقت التى ظلت فيه العادات العربية القديمة والنظرة العربية للحياة جامدة فى مكة ، كانت الحياة فى المدن الجديدة بالعراق ونواحى النشاط فيها تمطى العروبة هناك طابعاً جديدا . إذ بدا أن جنساً جديدا ولد ، جنسا أبيا صريحا بعيد النظر ،

وشديد المرح أشبه بالعرب القدامى من أهل الحجاز ، ولكن يفوقهم أيضاً في مزاجه وطابعه العالمي . فطرح سكان البصرة والكوفة روح أجدادهم المحافظة ، تلك الروح التي كانت حتى ذلك الوقت مقياس الجودة التي لا يمكن مهاجمتها ، واتجهوا نحو الأخذ بأسباب التقدم . ومن ثم اجتمعت مميزات مكة وفضائل مدائن بلاد الرافدين في عاصمة الأمويين ، التي جاء إليها عناصر جديدة كذلك زادتها شأناً وامتيازا .

ثم إن دمشق وحدها تمتعت، من دون المدن المفتوحة ذات المراكز الثقافية، بالعظمة التي اكتسبتها من وجود مقر الحكومة فيها . أما حكام العراق ومصر فكان عليهم أن يقيموا في المعسكرات التي أنشئت حديثاً إذ ذاك ، برغم ميلهم إلى سكنى المدن القديمة . وإذا كانوا قد أخذوا الشيء الكثير من الوسط الذي أقاموا فيه ، فإنهم برغم ذلك بدأوا كل شيء من جديد . أما في دمشق فقد احتك العرب الساميون بحضارة من نوع حضارتهم وهي الآرامية . ثم إنه وافق مزاجهم تلك المدنية الزاهرة ، القائمة على حافة الصحراء ، بجداولها وخرير مياهها وأماكنها الظليلة . ولذا كثر عدد العرب الذين نزلوا بها في سرعة عجيبة ، حتى بلغوا في سنة ٧١٠ م نحو ١٢٠٫٠٠٠ .

ولم يجد الأمويون ، الذين فطرت نفوسهم على حب السيادة ، والميل إلى الاستمتاع والمرح مكاناً أكثر ملاءمة لمزاجهم من دمشق ، إذ أمدتها بيزنطة بالكماليات ، ومكة بالموسيقيين ، والبصرة والكوفة بثمار الفكر .

وسرعان ما تبين الأمويون أنه لا يمكنهم المضي في طريقهم على حساب غيرهم فحسب ، ولكن لا بد من أن يبتكروا أشياء جديدة بأنفسهم . ولذا اتجهت جهود الأمويين إلى الابتكار وعدم الاكتفاء بما يأخذونه عن غيرهم . أما في ميدان

الابتكار الفنى فلم يجدوا إليه سبيلا ، إذ أن شعورهم بأنفة السيادة حال بينهم وبين اتباع غيرهم ، على حين منعتهم بدواتهم من أن يألفوا شيئا من ذلك الميدان أو يتعلموه . ومن ثم قنعوا بالإعجاب فقط ببدائع الفن البيزنطى ، وأخذوه دون أن يغيروا منه شيئا ، كما أدخلوا عمالا بيزنطيين فى خدمتهم . فأمر الخليفة عبد الملك ببناء قبة الصخرة على مسجد عمر ، الذى يعد بفضل التعديلات التى أدخلت عليه فيما بعد من أجمل الآثار المعمارية فى العالم . ثم إن الخليفة الوليد لم يستطع مقاومة دوافعه نحو كنيسة القديس يوحنا ، التى اقتسمها المسلمون إذ ذاك بالتساوى مع المسيحيين ، فاشترى من المسيحيين حصتهم ، وحول البناء إلى مسجد رائع .

على أننا نجد فى تلك المبانى اختلافاً وابتعاداً عن النماذج الهلينية ، مما يدل على ظهور فن إسلامى جديد بحت . ولكن كيف حدث ذلك ، ولا سيما أن جميع أعمال العمارة كانت فى أيدى أناس من رعايا الشعوب التابعة للدولة الإسلامية ؟ . إن ذلك أمر لا يزال سراً لم يعرف بعد . غير أن دراسة أوراق البردى أوضحت أن العمال الأجانب استخدموا على نطاق واسع فى إقامة شتى المرافق الدينية . ويمكن أن نتبين من ذلك أصول المنشآت الأموية ومميزاتها ، ومدى اتصال الطرز التى استعملت فيها بالطرز القديمة ، ودخول عناصر جديدة شرقية وغربية على الزخارف .

وإن قصور اللهو التى اتخذها خلفاء بنى أمية فى الصحراء ، وسموها البوادى ، والتى اكتشفنا واحداً منها وهو « قصير عمرة » ، إن هذه القصور تعتبر فى نظرنا مثالا لاستخدام الأمويين لكل ما عرف فى زمانهم من الفن والعلم حتى تصير مساكنهم جديرة بهم ، ومستوفية لشروط الراحة على قدر المستطاع . وبين أيدينا نص لأحد رواة العرب ، نتبين منه الطرز الأولية لكل القصور العربية التى بنيت بعد ذلك حتى بناء قصر الحمراء ؛ فقال : « لقد جئنا إلى قصر عظيم ، كسيت أرضه

بالمرمر الأخضر ، وفى وسط الفناء حوض كبير به مياه جارية تروى الحديقة ، التى تشمل جميع أنواع النباتات الجميلة والأشجار الظليلة والطيور التى تغرد بأعذب الأنغام . »

على أن جلال القصور تجلى فى أبهة البلاط ؛ ويا له من تغيير عظيم عما كان عليه فى الأيام الأولى للخلافة ! . ذلك أن الرسول لم يتخذ لنفسه سمة تدل على مركزه الرفيع ، كما أن ملابسه لم تتميز عن سائر ملابس عامة العرب . وكذلك كان شأن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى . ولكن الأمر الآن أصبح مختلفاً ، فالخليفة الأموى الأول والثانى ، اللذان ظلا يؤمان الناس فى الصلوات الخمس ، ويلقيان خطبة الجمعة ، ظهر كل منهما فى تلك المناسبات وهما متشحين ثياباً كلها بيضاء ، ويغطى رأسيهما عمامة مخروطية ، وفى أيديهما عصاة تشبه الصولجان .

وكذلك ارتدى الخلفاء ملابس فاخرة فى المناسبات العامة الأخرى . وعند استقبال الناس جلس الخليفة متربعاً على العرش ، يحيط به أقاربه من أهل أمه وأبيه ، وكذلك إخوته وأبناؤه . وعلى أبعاد مناسبه يجلس الموظفون والعمال والشعراء وأصحاب الحاجات .

وكان الأمويون الأول حكاماً نشطاء أكفاء ، فخصصوا شطراً كبيراً من يومهم للأعمال الإدارية ، على حين قضوا الأمسيات والليالى فى السمر . ثم إنهم عشقوا فى بادئ الأمر سماع القصص التاريخية ، وفضلوا منها خاصة أساطير الجنوب ، وهذا فضلا عن إنشاد الشعر . ولكن سرعان ما تطور السمر البرئ وأصبح استمتاعاً ، فاستدعوا الموسيقيين من مكة والمدينة ، وارتشفوا النبيذ بدلا من شراب التفاح والورد ، اللذين استعملا من قبل . فكان يزيد الأول ثملا دائما ، على حين جلس عبد الملك بن مروان للشراب مرة كل شهر ، وعلى نحو ما فعل الرومان

دأب على تقيؤ الأكل وإخلاء معدته ، لكى يعود إلى الشراب من جديد . أما ابنه الوليد ، الذى بلغت الامبراطورية الإسلامية فى عهده أوج مجدها ، فعقد مجالس للشراب يوماً بعد يوم . ولم يشرب الخليفة هشام ، آخر خلفاء بنى أمية العظام ، إلا كل يوم جمعة عقب الصلاة الجامعة .

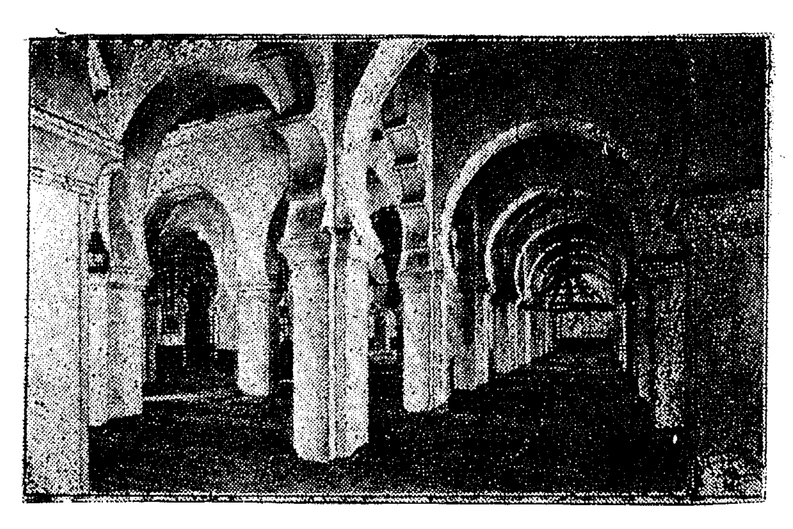
ولم تكن تلك الحفلات عديمة الأهمية بالنسبة للحضارة العربية . إذ هيأت الفرص للفنانين والشعراء لعرض مواهبهم أمام الخليفة ، الذى جلس وفق العادة الفارسية ، خلف ستار شفاف مسدول وسط القاعة ، ويفصله عن الضيوف والشعراء والفنانين ، ويستمع إلى الموسيقى والغناء . وكان تأثر الخلفاء بالموسيقى والغناء وهم وراء الستر ، يأخذ صوراً سقيمة، ولاسيا عندما يستخف بهم الطرب . فيروى أن يزيد الثانى قد بلغ به الإفراط فى إحدى المناسبات ، عندما كان «معبد» مغنى مكة ينشد ، حتى قفز واقفاً ورقص حول القاعة . أما الوليد الثانى ، الذى أقام فى أحد قصور اللهو فى بادية الشام ، فقد اعتاد عندما تعزف الموسيقى أن يجلس فى قاعة كبيرة ، فى وسطها حوض عظيم ، نصفه مملوء بالماء والآخر بالنبيذ . وكان غناء معبد يستخف بلبه فى بعض الأحيان ، بدرجة تجعله يطيح عباءته جانباً، ويقفز إلى الحوض حيث يملأ فمه بالنبيذ . وعندئذ كان العبيد يهرعون إليه بملابس أخرى نظيفة ، وبالروائح والمساحيق . ويختتم الحفل دائما بإغداق الهدايا الفاخرة على المغنى ، والتنبيه عليه بأن يحفظ ما شاهده طى الكتمان إلى الأبد .

ولم يكن الوليد مغرماً بالموسيقى والغناء فحسب ، وإنما كان هو نفسه موسيقيا ومغنياً ، ثم إنه أجاد قرض الشعر والعزف على العود ، وكان له فى كل منهما جودة عالية . وأظهر هذا الخليفة الموهوب ، على نحو ما فعله معظم خلفاء البيت الأموى ،

اهتمامه وتشجيعه بسائر مظاهر النشاط الثقافى . ولذا لم يكن عجباً أن يزدهر العلم في مثل تلك الظروف .

ومما يؤسف له، أن الاضطرابات السياسية والفتن التي حدثت فى القرون التالية قد قضت على كل شيء ظهر فى ميدان العلم والفن قضاء تاماً . فلا نعرف عن قادة الحضارة العربية ورسلها الأول فى ذلك الوقت أكثر من مجرد أسمائهم . ومن ذلك أن يزيد ، أحد أمراء البيت الأموى (٧٠٤) م شغف بدراسة الكيمياء ، وتعلمها على يد راهب ، وألف ثلاثة كتب فى ذلك الموضوع ، تناول فى الأول منها ذكر أستاذه وتعاليمه . أما عن دراسة العلوم الطبيعية عند العرب ، فنجد أنفسنا فى ظلام دامس .

وكذلك يحيط الغموض بمبادىء علم التاريخ عند العرب ، وكل ما نعرفه هو أن الأمويين أحبوا أساطير عرب الجنوب، وشجعوا الناس على الاهتمام بها . واشتهر اليمنيان اللذان استدعيا إلى بلاط دمشق لسرد تاريخ ملوك اليمن ، ورواية قصص الإنجيل ، بأنهما من الرجال المشتغلين بالأدب كذلك . وألف أحدهم وهو عابد ابن شريح « كتاب الملوك » و« التاريخ القديم »، وذاع هذا الكتاب بين الناس خلال القرن الأول الهجرى . أما الشخص الآخر فدون على نحو ما يذكر أصحاب السير العرب ، كتاباً عن غزوات النبي ، وانتشار الإسلام ، وعن الإسرائيليات . وقيل إن كاتباً ثالثاً وضع فى ذلك العصر ما لا يقل عن اثنتين وثلاثين مقالة ، لم يصلنا منها غير أسمائها فقط . وهناك رجل من أهل المدينة ، كان محدثاً وقاضياً وفقيهاً ، وضع فى بلاط دمشق كتاباً عن حروب الإسلام الأولى . وكان تلميذه العامرى أول مؤلف قديم معروف كتب فى الحديث ، ولا يزال مخطوطه موجوداً فى القاهرة . ولدينا كذلك مخطوط يشمل مجموعة صغيرة من أحاديث النبي ، والمعروف أن مجموعات من الحكم والأمثال قد صنفت ببداية زمن الأمويين .



شكل ١١ — منظر من الداخل لجامع تلمسان

وكان المجال فى دمشق أصلح ما يكون فى الحقيقة للدراسات الدينية ، إذ تمتع المسيحيون بمركز عظيم فى البلاط ، واشتهر يوحنا الدمشقى ، آخر رجال الكنيسة الإغريقية العظام ، بأنه من المقربين إلى بلاط عبد الملك بن مروان . ومن ثم لم يكن هناك مفر من تبادل الأفكار بين المسلمين والمسيحيين . فألف يوحنا إذ ذاك كتاباً يدافع به عن المسيحية ، على حين أدى تأثر الفكر الإسلامى إلى نشأة مذاهب عديدة .

وهكذا نشأت العلوم عند المسلمين بتأثير المسيحية ، والدراسات التاريخية بدوافع فارسية ، والعلوم الفقهية بفضل التشريعات عند الشعوب التابعة للدولة الإسلامية . ولكن مهما كان الأثر الذى بقى لنا ضئيلا من هذا المجهود الثقافى ، فإننا لا نتعدى الحقيقة مهما بالغنا فى القدر الذى بُذل فيه على عهد الأمويين ، وفى قيمته . وأعظم دليل على ذلك المجهود ، نجده فى المصدر الوحيد الغنى بالمعلومات والذى بقى لنا عن ذلك العصر ، وهو الشعر الأموى .

ولم يكن غريباً أن يكرس الشعراء أنفسهم للتغني بمدح الخلفاء ، كما لم يكن غريباً أيضاً أن يصبح شاعر مسيحي ، وهو الأخطل ، شاعر الخليفة في ذلك الوقت . ألم يكن الأمويون متسامحين ، رقيقي الشعور سخي اليد ! . وإلى جانب شعر المدح وصلتنا آلاف القصائد التي تكشف للباحث عن مظاهر عديدة للعصر الأموي . ولسوء الحظ ليست لتلك الأشعار قيمة من حيث الأغراض التاريخية أو اللغوية ، إذ هي مصاغة في لغة صعبة مركزة ، لا يخرج منها القارئ العادي بشيء كثير . أما المختص بذلك العصر ، فيجد فيها مورداً فياضاً ، وينبوعاً لا يقدر بثمن للحصول على معلومات عن الحياة والعقلية العربية . فنرى في ذلك الشعر صوراً أكثر وضوحاً عنها في أي مكان آخر ، عن رذائل العرب الجامدة ، وهي الروح العائلية والعصبية القبلية . فيشمل هذا الشعر على هجاء قبائل معينة ، بأنها تمت إلى الوثنية والاسلام ؛ لأن الشعراء كما هو معروف أكثر خبرة بالحياة البدوية وخصائصها ، منهم بالحضارة الأجنبية التي تحيط بهم .

على أن الأمر الهام الذي يلفت النظر من حيث تاريخ الحضارة ، هو الدور الذي لعبه الشعراء في الدولة الأموية . ذلك أن الشعراء احتلوا في المجتمع العربي إذ ذاك المكانة التي تحتلها الصحف الحزبية اليوم . فكان لكل حزب أو عشيرة شاعرها الخاص ، الذي يقرض الشعر في هجاء الأعداء ومدح الأصدقاء . وغدا هذا الشعر كله ملكا مشاعا بين العرب ، فما يطمح إليه الفرد أو القبيلة هو تمجيد الشعراء بهم ، على حين كان الخوف من سخريتهم مما يقلق النفس . ولذا قدم أعظم الناس ثراء المنح الباهظة للشعراء ، أو أولئك المهيمنين على الرأي العام ، ليكسبوهم إلى جانبهم . وكم من شاعر قضى حياته في سجال مع آخر ، كما تحالف الكثير منهم على عدو مشترك . وكان مدح الرجال المشهورين ، وتمجيد الأبطال في ذلك الوقت ، والتنديد بالضعفاء والجبناء ، كان كل ذلك يجري في شعر تناقلته

الشفاه عن شفاه ، حتى بلغ أقصى أطراف الامبراطورية الإسلامية . ويعد ذلك الشعر المعاصر الدليل على العاصفة التي كانت تجيش في كيان الأمة العربية ، كما يعتبر أوثق الينابيع المعلومات عن قوة الأحزاب العديدة ، في المراحل المختلفة من الحكم الأموى ، حيث لعب دوراً هاماً في مضمار النضال .

والطابع الذى تحمله تلك الأشعار هو طابع أيام مضطربة عاصفة . فلم تهدد المذاهب الدينية سلامة الدولة وعرضتها للخطر فحسب ، بل إن الأحقاد القبلية هددت كيان الدولة كذلك . ومثلما حدث في بلاد العرب قديما ، حيث تحاربت كل قبيلة مع الأخرى ، أو مجموعة من القبائل مع قريناتها ، فإن العصبيتين الكبيرتين ، وهما عرب الشمال وعرب الجنوب وقفتا الآن تناضل أحداهما الأخرى ، وتبغى القضاء عليها . ولذا ساد الشام العداء بين قيس وكلب ، وفى العراق بين تميم والأزد . وإذا كان الخليفة الأموى الأول قد منع هـذا العداء الشديد من أن يتحول إلى صراع دامى ، فإن الأحوال لم تلبث أن تغيرت بعد وفاته ، وأصبحت الأحقاد القبلية عاملا هاما ومدمرا فى السياسة الإسلامية . فأصبح على كل خليفة أن يتخذ أنصارا له من قيس أو كلب ، وإذا تولى أحدهم الخلافة أخذ رجاله يقترفون أعمالا قاسية ضد أشياع الخليفة المتوفى . ومن ثم تنقلنا قراءة أشعار ذلك العصر إلى أيام الوثنية الأولى ، ولا نرى أية أثر للفكرة الإسلامية السامية التى تنادى بأن « المؤمنين إخوة » ، وحرام سفك دماء المسلم . أما الشيء الذى جد الآن هو اتساع مجال الخصومات ، التى لم تعد تشمل بلاد العرب فقط ، وإنما غدت الإمبراطورية الإسلامية مسرحا سادته الأحقاد المتأججة والعاطفة الوحشية والحروب التى أطاحت برباط الأخوة .

ولذلك لا ندهش أن هدمت هذه الحروب المهلكة الدولة الأموية . ولكن الذى يثير الدهشة هو أنه فى ذلك الوقت الذى عصفت فيه المنازعات الداخليـة

بالدولة الإسلامية ، تمثلت العروبة الأجناس التابعة لهـذه الدولة . إذ انهار « الحاجز العالى » الذى أقامه العرب بينهم وبين رعاياهم ، ولا سيما أنه ساعد على تداعى هـذا الحاجز أن الشعوب رأت فى اعتناق الإسلام الطريق الوحيد للدخول فى صفوف السادة العرب . ثم إن اعتناق الإسلام أسقط عنهم الجزية ، وغير ذلك من الالتزامات المفروضة على غير المسلم . وأصبحت كلمةمسلم منذ ذلك الوقت ترادف كلمة عربى .

واستخدم الفرس وأهل الشام والأقباط والبربر اللغة العربية ، ووضعوا مواهبهم وعلومهم فى سخاء فى خدمة العروبة . وتلاشت منذئذ القوميـات ، وأصبح الإنسان يعتبر نفسه عربيا ، سواء أكان فارسياً أم شامياً أم مصرياً . وكذلك أصبحت كلمة « عربى » ، تعنى كل مسلم يكتب العربية ويتكلمها . وكان ذلك هو أهم حدث فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، كما كان ذلك الدليل الذى لا يقبل الجدال على أهمية رسالة العرب فى ذلك العصر . ذلك أن الفرس والبيزنطيين والأقباط قد ترديوا إذ ذاك فى سبات عميق ، وأصبحوا عاجزين عن الابتكار والسير وحدهم فى طريق التقدم . ولكن اتصالهم بالعرب هزّ كيانهم ، وأيقظ فيهم حياة ثقافية جديدة .

ولذا نبتت فى غمار الاضطرابات الدامية نواة الحضارة ، التى غرست فى أرض جديدة ؛ وفى الوقت الذى هدأت فيه العاصفة باختفاء نجم الأمويين ، وبزوغ نجم العباسيين فى الأفق ، ازدهرت هذه الحضارة ازدهارا عظيما .

الفصل الخامس

بغـــداد

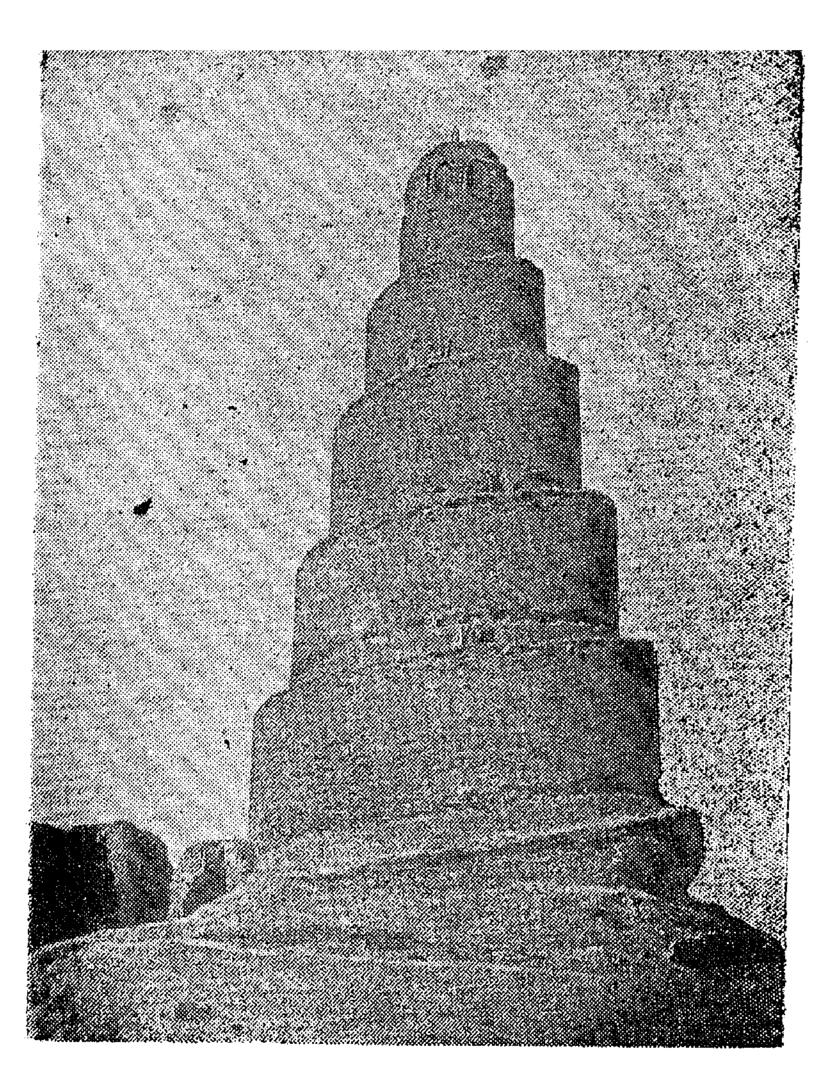
إذا كانت تعاليم الرسول قد جمعت تحت لواء دين واحد شمل أمم مختلفة فى آسيا وشمال إفريقيا فى القرن السابع الميلادى، فإن فكرة مسيحية عامة خلقت إتحادا مشابها لذلك فى أوربا فى منتصف القرن الثامن الميلادى، حيث انضوت إيطاليا وفرنسا وألمانيا تحت لواء واحد آخر هو لواء البابوية[1] .

وجاء هذا الإتحاد وليد الشعور بامتداد خطر المسلمين إلى أواسط أوربا. فمنذ القرن الثامن اندفع العرب، الذين شد البربر أزرهم صوب أوربا الغربية، فقضوا على دولة القوط الغربيين، ثم توغل الجيش الإسلامى فى غالة، حيث توقف عن الزحف عند تور سنة ٧٣٢ م، بسبب إنتصار شارل مارتل عليه. وترتب على هذا النصر الحربى سمو منزلة شارل وآل بيته من بعده، مما أدى فيما بعد إلى أبعد الآثار فى تطور أحوال أوربا الوسطى.

ولكن حدث فى ذلك الوقت الذى أوشك فيه الإسلام أن يغير مجرى التاريخ البشرى، حدث فى أحضان الدولة الاسلامية انقلاب جديد خطير. فقد زالت

---

(١) لاشك أن المؤلف يغالى فى مقارنته بين الوحدة التى خلقها الإسلام بين الشعوب التابعة له، وبين التحالف الذى تم بين البلاد التى ذكرها المؤلف وبين البابوية. إذ أن وحدة الإسلام قائمة على أساس العقيدة الإسلامية السامية، أما التحالف الآخر فهو نوع من التنظيم السياسى الذى دفعت إليه المصالح الدنيوية (المترجم).



شكل ١٢ — مئذنة جامع سامر « أو ملوية سامرا »

دولة الأمويين ، التى كانت تمثل حسنات ومساوىء بيت مكى قديم ، وذهبت ضحية عنجهية أهلها . ذلك أن الأحقاد القديمة المتأصلة فى نفوس العرب منذ زمن قديم دفعت الأمويين إلى أن زجوا بأنفسهم فى حلبة الفوضى والنزاع ، مما أدى بهم أخيرا إلى التهلكة . فنظر العرب إلى خلفاء بنى أمية على أنهم ليسوا إلا رؤساء قبائل ، إما لعرب الجنوب أو الشمال ، وأنهم أيضا ليسوا إلا أمراء بيت أمية العريق . ولذا بينما أطلق الخلفاء الأمويون لأنفسهم العنان فى اللهو والشقاق الحزبى ، حاول بيت آخر من بيوت مكة ، وهو بيت هاشم ، أن يحيى الخلافة بمعناها القديم. وحول منتصف العصر الأموى كان بنو العباس قد اكتسبوا إجلال أهل السنة وثقتهم بدرجة أثارت مخاوف الأمويين . وازدادت تلك المخاوف عندما حدث انشقاق فى البيت الأموى نفسه فى عهد الوليد الثانى ، ثم لم يلبث الخطر أن أخذ صورة مفزعة عندما انضم قائد عظيم ، وهو أبو مسلم ، إلى العباسيين .

وعقد الإمام ، وهو رأس البيت الجديد ، راية سوداء لأبى مسلم ، الذى حارب تحت لوائها الأمويين فى أقصى خراسان وفى الكوفة ، على حين تمت هزيمتهم آخر الأمر فى معركة فاصلة دامت يومين عند الموصل[1] . وفرّ مروان الثانى ، آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر ، حيث أخذ يعد العدة لمقاومة أخرى فاشلة ، إذ انهزم وأرسلت رأسه إلى أبى العباس ، أول الخلفاء العباسيين .

وهكذا آلت أمور الدولة مرة أخرى إلى بيت مكى ، يمت بصلة القربى للرسول ، وكان عليه أن يقيم سننه ويحقق أهدافه ولكن بينما لم يتعد تفكير العباسيين فى الواقع إحياء الخلافة بشكلها القديم ، فإن الهدف الأخير لمجهوداتهم أدى إلى إقامة حكم استبدادى من طراز حكم أكاسرة الفرس السابقين .

---

(١) هذه الوقعة هى معركة « الزاب » أحد فروع نهر دجلة (المترجم).

وعلى الرغم من أن العباسيين قضوا على بنى أمية قضاء مبرما لم يفلت منه سوى واحد منهم فر إلى الأندلس عن طريق المغرب ، فإنهم لم يشعروا بالأمن بين أشد رعاياهم إخلاصاً لهم ، كما أنهم لم يطمئنوا إلى الاستقرار فى مدن العراق الكبرى وهى الكوفة والحيرة والأنبار . ولذا صمموا على تأسيس عاصمة جديدة لأنفسهم ، جاء موقعها وتصميمها إيذانا بقيام عهد جديد .

وأسست العاصمة الجديدة على نهر دجلة فى سهل خصيب ، وعند نقطة تلتقى فيها أهم الطرق التجارية فى آسيا الغربية ، حيث قامت من قبل ، بابل وسلوقية والمدائن . وتاريخ هذه البقعة معروف من قديم الزمن بأنه مهد قوة وثقافة أسيوية عريقة ، بل إن تلك البقاع غدت فى صدر الإسلام مقر جماعات عربية طرحت عنها روح التقاليد القديمة ، واتجهت إلى الأخذ بأسباب التقدم ، كما أقام فى تلك الجهات أيضاً أكثر العرب ذكاء ، وميلا إلى التقدم وأبعدهم نظرا وأشدهم حباً للثورات والاضطرابات .

وتطلب الإمساك بزمام تلك الأقوام قوة عظيمة ، ولذا رأى المنصور ضرورة الإقامة بين ظهرانيهم ، ولا سيما أن العباسيين يدينون لهم بقيام دولتهم . ومن ثم بدأ المنصور ، ثانى الخلفاء العباسيين ، يبعث الحياة (سنه ١٤٥ هـ) فى هذا المركز القديم ، الذى غدا فى ذلك الوقت خير مقر للسادة الجدد ، يستمدون منه العون فى نضال أعدائهم الألداء ، ويؤمنون به أنفسهم من شر ما توسوس به نفوس رعيتهم ، ومن كل ما عسى أن يتمخض عن ذلك من أحداث الشغب .

ويقال إن المنصور أمر بجلب العمال من الشام والموصل ، ومن فارس وبابل ، كما أحضر المعماريين والمهندسين من سائر البلاد . وأدى جمع البنائين على هذا النحو السالف ، وتأثير أطلال المدائن التى كانت باقية إلى ذلك الحين (أنظر

الصورة رقم خمسة لأطلال المدائن الباقية إلى اليوم)أدى ذلك كله إلى ظهور المدينة بطابع جديد فريد •

وكانت المدينة الجديدة مدورة ، وتقوم على مساحة قدرها ٢٥٠٠ مترا مربعا ، ويحيط بها سوران عظيمان من لبنات ضخمة ، يبلغ حجم الواحـدة منها ذراعا فى ذراع . وكان السور الداخلى أعلى من السور الخارجى ، وارتفاعه تسعين قدما ، وعرضه عند الأساس مائة قدم ، على حين يأخذ ذلك العرض فى الضيق تدريجيا إلى أعلى حتى يصل إلى سبعة وثلاثين قدما .

ولا يرجع السبب فى عدم بقاء تلك الأسـوار الضخمة قائمة حتى الآن إلى الأغارات على هذه المدينة ، ولـكن لأنها بنيت طبقا للتقليد البابلى القديم من اللبن المجفف فى الشمس ، فـكان من الطبيعى أن تنهار ، وتتحول بمرور الزمن إلى تراب . وأحاط بالسور الخارجى خندق مملوء بالماء ، على حين كان للمدينة سور داخلى ثالث يحيط بالمنطقة المركزية ، أى قلب المدينة ، وبذلك غدت هذه الأسوار كلها عبارة عن دوائر متحدة المركز . وكان للمدينة فى كل من حوائطها الدائرية أربعة أبواب على أبعاد متساوية ، وهى باب الـكوفة وباب البصرة وباب خراسان وباب الشام . ولا بد لـكل من يريد الدخول إلى المدينة أن يمر من أحد هذه الأبواب الأربعة ، التى امتد من كل منها طريق رئيسى يصل إلى قلب المدينة . وقام على كل باب من الأبواب الأربعة فى الجدار الخارجى برج كبير ، على حين غطيت دهاليزها بسقوف تستند على أعمدة ذات عقود ، واحتل هذه الدهاليز رجال الشرطة بخيلهم .

أما المنطقة الواقعة بين سور المدينة والسور الداخلى المحيط بقلب المدينة فقسمت إلى إقطاعات ، شغلتها منازل حاشية الخليفة وكبار رجال الدولة ، كما تخللتها شبكة من الشوارع والحارات . وفصل السور الداخلى هذه الأحياء عن قصر الخليفة ،

الذى بلغت مساحته رقعة كبيرة . وعلى مقربة من القصر قام المسجد وثكنات الحرس ، وكانت سبل الاتصال بين هذه المنطقة الداخلية وباقى الأحياء هى الطرق الرئيسية الأربعة ، التى يمكن غلقها بواسطة أبواب ضخمة .

ودلت هيئة العاصمة الجديدة بغداد (هبة الله) أو مدينة السلام ، كما سميت رسميا ، على عزم العباسيين على إدارة دفة الحكم بيد حازمة . وقد استطاعوا النهوض بذلك العبء خير نهوض مدى قرن ونصف قرن . واتخذ الحكم العربى ، بتأثير الفرس ، الذى تعد العاصمة الجديدة عنوانا عليه ، مظهرا من مظاهر الاستبداد الشرقى القديم . ولا يتسع المجال هنا اسرد تفاصيل تطور الدولة العباسية ، ووصف مراحل الإنهيار الذى أصابها ، ولهذا نكتفى بإلقاء نظرة عابرة على مميزات هذه الحقبه ، وبيان خطوطها الرئيسية دون دخول فى التفاصيل .

كان الجيش عضد العباسيين الرئيسى ، والعمود الفقرى لقوتهم ، وقد نما نموا عظيما نتيجة السماح لمعتنق الإسلام الجدد بالانخراط فى صفوفه ، فبلغ عدده زمن العباسيين الأول مئات الألوف ، ووصلت عدة الجيش الشامى وحده فى العراق نحو ١٢٥٫٠٠٠ . وكان أولئك الجند جميعا من النظاميين المدونين فى الديوان، ولهم أرزاق وأعطيات . وقلت هذه الأرزاق لازدياد عدد الجند ، فتناول الجندى زمن مجد العباسيين الحربى عشرين درهما فى الشهر (الدرهم يعادل فى قيمته أربعة قروش ونصف قرش) .

وقامت إلى جانب الجند النظامى ، جماعات المتطوعة ، التى تألفت من البدو والفلاحين وأهل المدن ، الذين اشتركوا فى الحروب تحدوهم دوافع إما شخصية أو دينية . ورتب الجيش على أساس الجنس ، « فالحربية » أى المشاة ، والتى تسلحت بالرماح تألفت من العرب ، « والجند » ، وهم المشاة والخيالة تكونت

من العجم خاصة ، أما الخراسانيون وهم أحد جماعات العجم ، فكانوا نواة الجيش ، ولهم مركز خاص . ذلك أن الخلفاء اعتقدوا أن باستطاعتهم الإشراف على الجيش عن هـــذا الوضع ، ولا سيما بنشر التنافس بين عرب الشمال وعرب الجنوب . ولـكن لم يكد ينقضى قرن من الزمان حتى برز عنصر أجنبي جديد ، وغدا أكثر نفوذا وخطورة من الخراسانيين . وكوّن هذا العنصر ، وهم الأتراك ،القسم الرابع والكبير من الجيش . ذلك أن الترك جاءوا فى أعداد كبيرة سنة بعد أخرى إلى أسواق بغداد ، ومن هذه الأسواق سلكوا طريقهم إلى بلاط الخليفة ، وبالتالى إلى الجيش . ثم تمتعوا بتقدير خاص أملا فى أن يكونوا درع الخلافة القوى ، فأصبح منهم حرس الخليفة الخاص . ولـكن سرعان ما غدوا نقمة على المدينة ، حيث اتسم سلوكهم بالاستبداد والعنف ، وبمضى الزمن سيطروا على الخلفاء ، وأصبحوا يولونهم ويعزلونهم كيفما شاءوا .

وبالرغم من مظاهر هذا الضعف الداخلى ، ظل الجيش العباسى مدى قرن كامل أداة قوية ضد الأعداء . ولم يختلف هذا الجيش فى عدته وتدريبه عن الجيش البيزنطى ، فاستعمل نفس الأسلحة ، وهى القوس والسهم والرمح والمقلاع والسيف والبلطة . أما ملابس الجند فجمعت بين حسن المخبر والمظهر ، فكانت هناك البيضة للرأس ، والدرع للجسم ، وذلك فضلا عن الأحزمة والمناطق ، أما السيوف فصنعت بعناية فائقة ودقة عظيمة .

وكان عرض الجيوش منذ زمن مبكر جزءاً هاماً من نظام تدريب الجيش ولاسيما منذ عهد المنصور ، إذ اهتم بالشئون الحربية ، واعتاد أن يشاهد هذه الاستعراضات جالساً ، وفى بعض المناسبات وهو متربع على عرشه ، ولابساً خوذة ودرعاً . وسارت القوات أمامه ثلاثة أقسام ، عرب الشمال (مضر) وعرب

الجنوب (اليمنيين) ثم الخراسانيين • واتخذت القوات على عهد المعتصم زياً موحداً ، حيث ألبس حرسه الدمقس ومناطق الذهب . أما المتوكل فأمر بتغيير زى الجند جميعاً ، وجعلهم يلبسون عباءة سمراء قصيرة ، ويشدون سيوفهم بحزام فى الوسط على طريقة الفرس ، وذلك بدلا من تعليقها بحمائل على الكتف ، وفق عادة العرب القديمة • وهذا يدل على أن التجارب الحربية ، وحاجات الميادين فى الشرق ، دفعت الناس هناك منذ ألف سنة على استخدام الأساليب التى لم نعرفها نحن فى الغرب إلا منذ زمن قصير .

وعلى نحو ما نشاهد فى أيامنا ، امتد العلم زمن هارون الرشيد إلى خدمة الشئون الحربية . فاتخذ كل قسم من الرماة جماعة من الرجال لاستخدام النفط فى قذف مراكز الجيوش القوية • ويتضح من الروايات التى وصلتنا أن النفاطين كانوا يلبسون أردية تقيهم النار ، وتمكنهم من اختراق أطلال العدو وهى مشتعلة بالنار • وحيثما اتجهنا بنظرنا ، رأينا مظاهر كنا نحسبها من اكتشافات العصور الحديثة فحسب . ذلك أن نظام الجواسيس استخدم استخداماً كاملا ، فسافر الجواسيس من الجنسين ، إلى الأقاليم المجاورة متنكرين فى صور عديدة ، من تجار أو أطباء خاصة ، ويجمعون الأخبار وينقلونها .

ولم تنشط الجاسوسية العربية فى مكان ، بقدر ما نشطت فى بلاد الامبراطورية البيزنطية . إذ كانت هذه الامبراطورية منافسهم القوى ، كما كانت فى الماضى المصدر الذى أخذوا عنه الفنون الحربية . غير أن العرب استخدموا فى نضال هذه الدولة فناً جديداً ، يشهد لهم بالنشاط والروح العملية وإدراكهم لأهدافهم ، وهو نظام الثغور . فكانت الحدود الشامية المواجهة لآسيا الصغرى ، أكثر حدود الدولة الإسلامية استهدافاً للخطر . وطالما تحارب هناك المسلمون والبيزنطيون ، وتبادلا الاستيلاء على النقط الاستراتيجية ، وهى طرسوس ، وأذنه ، والمصيصة

ومرعش وملطية . وفى عهد المنصور استولى العرب على هذه الجهات وحصنوها مرة أخرى .

ثم أنشأ هارون الرشيد إقليم الثغور ، وهو نظام عسكرى بحت . إذ بنيت حصون جديدة ، وزودت كل نقطة هامة بحامية دائمة خاصة بها . ونالت القوات فوق مرتباتها ، التى لم تكن بأية حال ضئيلة ، أرضاً تستثمرها هى وعائلاتها . وفى عهد هارون الرشيد وخلفائه المباشرين ، انتقل أناس كثيرون بأسرهم من ولايات الامبراطورية القاصية إلى إقليم الثغور واستقروا فيه . وأدى ذلك إلى ازدهار حياة هذا الجزء من البلاد، الذى خربته الحروب المتكررة ، وأنقصت عدد سكانه . وظلت أحوال إقليم الثغور حسنة زاهرة حتى أيام الخليفة الواثق ، ولكن منذئذ بدأ نجمها فى الأفول ، حيث قضت الحروب المستمرة وويلاتها على عمران هذه الجهات .

وإلى جانب الجيش قام الأسطول بدور فعال فى نشاط المسلمين الحربى ، فمنذ سنة ٣٤ هـ نرى هذا الأسطول يفتح قبرص . ويشن حملة على بيزنطة . ومنذئذ يتكرر ذكر الحملات التى قام بها الأسطول . ومن المؤكد أن العرب أخذوا الكثير فى هذا الميدان عن البيزنطيين ، ومن المقطوع به ايضاً أن أوربا مدينة للعرب كذلك فى نفس هذا الميدان البحرى . فلا زالت هناك اصطلاحات بحرية فى اللغات الأوربية اليوم تدل على مدى دين الغرب للعرب فى هذا الميدان . ذلك أن نفوذ العرب ساد جميع الشعوب القاطنة على ساحل البحر الأبيض ، وغدا الأسطول العربى فى هذه الفترة الأولى نموذجاً يحتذى عند تلك الأقطار المسيحية ، كما يؤيد ذلك احتفاظ لغات أوربا الجنوبية بكلمات عربية عديدة مثل « أرسنال » الإيطالية ، وهى دار الصناعة العربية ، و « كورفت » المشتقة من كلمة غراب العربية .

وبلغت الدولة على عهد العباسيين الأول أقصى درجات الرقى فى الإدارة الحربية والمدنية . فبالرغم من أن تقسيم الامبراطورية إلى ولايات ، لكل منها عمال ، ظل دون تغيير ، فإن العرب أدركوا خطر استقلال أولئك العمال عن السلطة المركزية ، واحتاطوا لذلك بتوثيق الروابط بين الولايات والإدارة المركزية . فغدت الطرق التى تمتد من بغداد إلى سائر جهات الامبراطورية عامرة بالحركة ، وقام فى بغداد ديوان كبير للبريد ، وزودت الطرق بمحطات للبريد . واستخدم الحمام فى نقل الرسائل على عهد الخليفة المعتصم (٨٣٥ — ٨٤٢ م) . وساعدت كتب المسالك الخاصة بالدولة الرحالة فى أسفارهم ، ووضعت الأساس للنشاط الجغرافى وأبحاثها . على أن نظام البريد لم يكن للجمهور ، وإنما اقتصر على أعمال الدولة ، فكان عامل البريد عيناً على العمال فى الولايات ، ويراقب تصرفاتهم .

وبالرغم من المجهودات التى بذلتها الدولة لم يكن هناك مفر من تجنب تفكك الامبراطورية ، إذ استقل العمال بولاياتهم شيئاً فشيئاً ، وأصبحت مناصبهم وراثية ، ثم لم يلبثوا أن زعموا لأنفسهم الحق فى تعيين من دونهم من العمال فى الولايات ، وأصبحوا آخر الأمر أصحاب السيادة على الولايات التى سبق أن عهدت الدولة إليهم بإرادتها . ثم إن زمام الأمر انتقل فى العاصمة كذلك من أيدى الخلفاء ، ذلك أنه قام إلى جانب الخليفة شخصية الوزير ، التى كانت برغم ما طرأ عليها من أهمية أوضعف تبعاً لهيبة الخلفاء ، الشخصية التى يجد فيها الناس مصدر السلطات ، من دون الخليفة . ومهما يكن من أمر السلطة المسئولة نظريا أمام الخليفة ، فإن الوزير عين القضاة بتفويض من الخليفة ، وذلك من بين أولئك الذين يلمون إلماماً تاماً بالشريعة . أما ديوان « النظر فى المظالم » أو « إدارة النظر فى الشكاوى » فكانت عبارة عن المحكمة العليا . وقد اقتبس روجار النورمانى ملك صقلية هذا النظام عن العرب .

واتجه معظم اهتمام الدولة إلى المسائل المالية ، وأوضح دليل على ذلك هو البيانات المفصله التى وصلتنا عن دخل الدولة . وتدل تلك البيانات على الرخاء العظيم الذى ساد القرن الأول من العصر العباسى ؛ ولكن هذا الدخل تدهور بعد ذلك . وسار ازدهار العاصمة جنباً إلى جنب مع رخاء الدولة ، فتحولت بغداد فى وقت قصير من معسكر إلى مدينة عالمية ذات ثروة وبهاء لا يمكن تصديقهما ، وقامت عزيزة ، لا يضاهيها فى ذلك الوقت غير بيزنطة . وبلغت بغداد زروة عظمتها فى القرن الأول ، أو على وجه الدقة فى الثلاثة والثمانين عاما الأولى من عمرها المديد الذى بلغ خمسة قرون . فتجاوزت العاصمة على عهد مؤسسها نفسه حدودها الأولى ؛ وظهرت الضواحى على امتداد الطرق الرئيسية التى تؤدى من أبواب العاصمة الأربعة إلى الولايات .

وبلغت مساحة بغداد، مع ضاحيتها الرصافه على الشاطىء الشرقى لدجلة، نحو خمسة أميال . وتألق وسط هذا البحر من المنازل قصر القبة الخضراء ، وظل هذا القصر، حسب معلوماتنا القليلة ، مقر الخليفة الرسمى حتى وفاة الأمين (٨١٣م). وكان منسقا من الداخل والخارج على النمط الفارسى . ولكن برغم ذلك لم يعد هذا القصر يرضى ذوق الخلفاء الفنى المتزايد ، فأسس المنصور نفسه قصرا ثانياً سماه « قصر الخلد » ، خارج حدود المدينة على الشاطىء الأيمن لدجلة . وأخيرا قام قصر ثالث ، وهو الرصافة على الشاطىء الأيسر لدجلة . واسترعى هذان القصران اهتمام الخلفاء على التوالى ، وتكلفت نفقاتهما المال الكثير . ومن ثم ترك قصر القبة الخضراء مهملا ومهجورا ، مما ترتب عليه أن هذه القبة لم تتحمل عاصفة من عواصف الشتاء وما صاحبها من مطر غزير ، وتهدمت فى مارس سنة ٩٤١ م .

أما المسجد الذى أسس فى نفس الوقت مع القصر القديم فى قلب مدينة

المنصور ، فقد عمر طويلا . ولدينا معلومات مفصلة عن هذا المسجد ، تدل على أن مستوى الفن زمن أولئك العباسيين الأول كان بسيطا متواضعاً ، وذلك بالرغم من استخدامهم لعمال أجانب . فبنى هذا المسجد من لبنات كبيرة ، ورفع سقفه على عمد خشبية ، وتكونت هذه الأعمدة من قطع خشبية ركبت بعضها فوق بعض ويعلوها تاج حلزونى الشكل . وذلك هو أول مسجد بنى فى بغداد ، وظل كما أسسه المنصور فى الأصل نحوا من نصف قرن ، إلى أن جاء الرشيد فهدمه واستبدل بذلك البناء المتواضع ، مسجدا راسخا من الآجر . وبلغ الفن فى نهاية القرن التاسع الميلادى درجة عالية من الجودة ، ساعد الخلفاء على توسيع المسجد وتجديده ، وإلباسه ثوباً رائعاً من الجمال من الداخل . فبالرغم من أن عمد المسجد وسقفه قد شيدت من الخشب بعد التجديد ، فإنهما كسيت بحجر اللازورد ، أى مكعبات ذات لون أزرق داكن .

وبالرغم من أن شيئاً لم يبق من هذا المسجد إلى اليوم ، فإن المساجد فى غرب الدولة الإسلامية ، فى القيروان وقرطبة تعطينا فكرة عما كان عليه مسجد بغداد الجامع . أما ما لدينا من المعلومات عن المبانى غير المساجد فقليلة ، ذلك أن مبانى المنصور لقيت نفس مصير المسجد . وكل ما نعرفه هو أن رغبة المنصور فى تشييد مبانى جديدة حملته على وضع أساس قصر ومسجد على الشاطىء الأيسر لدجله ، ثم أسكن ابنه وولى عهده المهدى فى ذلك القصر . واجتذبت شخصية المهدى المحبوبة كل من توافرت لديه الوسائل أو المال للاقامة إلى جواره . وبذلك فاقت بغداد الشرقية المدينة القديمة وحجبتها ، إذ عاش هناك البرامكة الأثرياء ، أصحاب الجاه ، وسكنوا قصرا جميلا انتقل بعد نكبتهم إلى الخليفة . ووسع الخليفة المعتضد هذ القصر ، وأطلق عليه اسم « التاج » وزينه بمدخل من المرمر ، وكان له على النهر مرسى ممتد فى الماء .

ولم تتأثر بغداد كثيراً بانتقال الخلافة إلى سامرا[١] فترة من الزمن خلال القرن التاسع الميلادى . فبعد عودة الخليفة حدثت فى العاصمة القديمة ، ولا سيما فى القسم الشرقى منها خاصة تطورات عديدة . على أنه لم يبق لنا شىء من الأعمـال الفنية الإسلامية التى قامت فى خلال خمسة قرون كاملة ، وليس أمامنا غير الاعتماد على خيالنا لندرك العظمة التى تمتعت بها هذه المدينة ، والتى كانت من قبل بلداً عالمياً .

ويجب ألا يغرب عن نظرنا أن بغداد كانت ثغراً كذلك ، إذ رسا فى ميناء بغداد ، الممتد مدى أميال على شاطىء دجله ، أسطول من السفن النهرية ، من جميع الأشكال والأحجام ، فضلا عن السفن الحربية ومراكب اللهو الخاصة بالخلفاء وأغنياء المدينة . وربما اعتبرنا أن هناك ضرباً من الخيال فى كل ما ذكره المؤرخون العرب والشعراء عن تلك المدينة العجيبة ، وعن السفن الخمس التى امتلكها الخليفة الأمين ، والتى صنعت على صور الأسد والفيل والنسر والحصان والثعبان . غير أن الأبحاث الحديثة أيدت تلك الأوصاف التى تبدو بعيدة عن التصديق .

وروى أنه قام فى شرق بغداد سوق صينى كامل ، يجد فيه المرء كل ما يريده من فرو النمور والقاقوم والثعلب ، فضلا عن عظام الأسماك وزيت كبد الحوت والعنبر والجلود والشمع والسهام والأسلحة ورقيق الصقالبة . ويؤيد ذلك عشرات الآلاف من قطع العملة العربية التى وجدت فى أجزاء مختلفة من روسيا وعلى شاطىء السويد كذلك . ومن ثم فإنه لامجال للشك فى أن العرب صدروا إلى تلك البلاد المنسوجات والجواهر والمرايا والخرز والتوابل وسنانير صيد الحوت . وإن نظرة على هذه الصادرات والواردات تكشف عن تفوق الامبراطورية الإسلامية فى ميدان الحضارة ، حيث استبدل العرب بمنتجاتهم المحلية المواد الخام الآتية من الشمال . وليس لدينا إلا القليل من البراهين التى تؤيد ما رواه المؤرخون عن هذا

التبادل التجارى ، ولـكن هذه البراهين على قلتها لا تقل فى قيمتها عن أقوال المؤرخين المسهبة إن لم تزد عليها فى القيمة .

ويبدو أن صناعة السكر والمعادن ظلت فى أيدى الفرس ، وكانت المنسوجات عدا فن صناعة السجاجيد ، صناعة عربية قديمة ازدهرت فى الأوضاع الجديدة ، وبلغت درجة ممتازة من الرقى . واشتهرت الشام بأنها موطن صـناعة الزجاج ، الذائع الصيت ، ولـكن بغداد لم تقل عن الشام فى هذه الصناعة ، حيث أنشىء بها مصنع خاص للزجاج كذلك . وتعلم أهل بغداد فى سرعه إسـتخدام الزجاج فى الأغراض الكمالية ، وعرفوا منذ أوائل القرن الثانى الهجرى الزجاج المطـلى ، وأنواع أخرى منه . وامتاز أهل العراق بصناعة قناديل ذات كتابات دينية، فضلا عن صناعة أكواب من جميع الأحجام والألوان . وظل جنوب بلاد العرب إلى عهد بعيد يقدم أحسن المنسوجات الـكتانية والحريرية . ثم أصبح الدمقس الذى رغب فيه الخلفاء الأمويون بصنع مرة أخرى فى العاصمة الشامية .

وتفنن صاغة الذهب فى إبداع أشـكاله ، فنقرأ عن شجرة ذهبية فى إحدى قاعات الخلفاء ، وعن فيل ذهبى له عينان من الياقوت . ولـكن لا نعرف على وجه التحقيق ما إذا كانت تلك التحف من الذهب الخالص أو المطلية بالذهب فقط . ويتحدث المقريزى المصرى عن مدرسة للتصوير فى البصرة ، وعن أعمال معـلم هناك ، برع فى تصوير المنظور براعة فائقة ، وذلك فى وقت إختفت فيـه نماذج التصوير العربى . وربما وجدنا أنفسنا فى شك من هذا القول لولا أن الـكشوف الحديثة فى هذا الميدان قضت على ما عندنا من ريب ، وصححت إعتقادنا الخاطىء . فقد كشف ألويس موصل فى قصير عمرة ، الذى تناوله العلماء بالدرس بعد ذلك ، رسوما حائطية عديدة ملونة ، ذات طابع بيزنطى ، وتدل على أن العرب لم يتحرجوا ،

حتى زمن الأمويين ، عن رسم صور الأشخاص على المبانى ، التى لا تحمل طابعا دينيا .

ومن ثم ظهر بطلان القول الشائع بأن تحريم الإسلام للتصوير قطع العصب الحيوى للفنون الجميلة ، وهى النحت والتصوير . وإذا كان التصوير لم يسمح به حقيقة فى المساجد خوفا من الوثنية ، فإن قصير عمرة يبين الحرية المطلقة فى إستخدام الرسوم فى المبانى .

وأقر الإسلام فضل العمل والكسب من ذات اليد ، وترتب على ذلك أنه حيثما وجد المسلمون شيئا جديدا إجتهدوا فى أن يتعلموه ويصنعوه بأنفسهم . ومن أمثلة ذلك أنه تصادف أن سمعوا بفن صناعة الورق فى طرف قصى من أطراف الإمبراطورية الإسلامية ، يحتمل أن يكون فى الصين نفسها . فاستحوز ذلك على خيالهم ، ولم يلبثوا أن أنشأوا فى السنوات الأولى من العصر العباسى مصنعا للورق فى سمرقند ، يحتمل أن أصحابه كانوا من الصينيين . ولكن ما كاد العرب يتعلمون هذه الصناعة حتى بدأوا تجارب لإنتاجه من الكتان والخرق . وفى سنة ٧٩٤/ ٧٩٥ م ظهرت فى بغداد أولى مصانع الورق ، وبدأ استخدام الورق فى دواوين الدولة . ثم انتشرت مصانع الورق بالتدريج فى أنحاء الامبراطورية ، وأنتجت أنواعا جديدة منه ، مثل ورق الحرير ، وورق الكتابة ، والورق المقوى وغير المقوى والورق الناعم والخشن ، والأبيض والملون . وكان ذلك من حسن طالع الفنون والآداب ، إذ وجدت بانتهاء عهد البردى والرق مادة أرخص وجديدة للكتابة .

وقام لون آخر من الصناعة ، وهو إعداد الروائح العطرية من الورد والنيلوفر المنثور وأزهار البرتقال والمسك والزهور ... إلى غير ذلك . ويعطينا الدمشقى

معلومات مفصلة عن هذه الصناعة فى المناطق المجاورة لدمشق . وانتشرت هذه الصناعة كذلك انتشاراً واسعاً فى بيئة شيراز من فارس ، وبلغ من انتشارها أن فرضت الحكومة ضرائب على الأماكن التى صنع فيها ماء الورد . وتطلب إعداد هذه الروائح أدوات أشبه بما تستعمل فى الكيمياء . وإلى جانب ذلك أدت الرغبة فى تنفيذ مطالب الزراعة والصناعة والعلوم إلى ظهور الحاجة إلى آلات ومعدات جديدة ، كانت تبتكر دائماً وتستخدم . وكرس العالم الإسلامى نفسه لهذا النوع من الصناعات ، وعدد الكتاب العرب دون مبالغة ، وفى إسهاب تام الاختراعات التى ظهرت فى ميدان الرى .

ولم يكن غش الطعام مجهولا أو نادراً ، إذ وصلتنا تعاليم أعطيت للمحتسب لفحص عينات من الطعام . وظهرت كذلك كتابات كثيرة تناولت السموم والتوابل وصناعة الصلب والخزف والمعادن والنسيج إلى غير ذلك من الأمور . وكانت هذه الكتابات من عمل أصحاب الصناعات والتجارة أنفسهم ، فلم يكتبها علماء ، وإنما كان مؤلفوها دون شك صناعاً وتجارا من طبقة ممتازة ، كتبوا أعمالهم لعامة أهل حرفهم . وهكذا نرى أن التجارة والصناعة وسلطان الدولة والمال الوفير تعاونت كلها مع بعضها فى أنصبة متساوية على نشر المعارف والعلوم .

وجاء مع الرخاء حب النعيم والرفاهية ، كما استيقظ أيضا الميل إلى المعرفة والبحث عن الحقيقة ، الذى يعد أنبل المطالب وأرقاها . ويؤكد هذه الحقيقة بصورة جليه تماماً معاهد التعليم فى عصر بغداد الذهبى . لقد رأينا من قبل تأسيس مدارس لتعليم القرآن فى بلاد العرب والولايات زمن الخلفاء الأول . وفى عهد العباسيين نرى انتشار تلك المدارس كالشبكة فى أرجاء دولة الخلافة . وربما كان الأساس فى مواد التعليم إذ ذاك ، هو نفس الأساس الذى يجرى عليه العمل اليوم

فى مكاتب تحفيظ القرآن . ودرس الطالب غالباً إلى جانب ذلك النحو ، كما تعلم الطلبة فى شرق الدولة الخط الحسن .

وظهر نوع من المدارس الإلزامية دون حافز من الدولة · والتحق الأولاد بالمدرسة فى سن السادسة ، وشاركهم البنات ، وتمتع فيها الغنى والفقير على السواء بنفس الحقوق والامتيازات · ودفع الجمهور أجور المعلمين ، ولدينا نصوص طريفة تصف لنا كيف اتفق الآباء مع المعلمين على تخريج أبنائهم من المدرسة قبل غيرهم . ويدل ظهور معاهد التعليم العالى التى كثرت بعد ذلك ، على أن جهود هذه المعاهد الأولية قد آتت أكلها . على أنه لم توجد مدارس متوسطة ، أى مرحلة تجهيزية تؤهل لدخول المعاهد العالية · ثم إن كل من وجد نفسه بعد الفراغ من الكتّاب غير أهل لتلقى العلم فى المعاهد العالية ، اجتهد فى أن يعلم نفسه بنفسه حتى يصل إلى ذلك المستوى العالى . وتمتع الدين أيضاً بالمركز الأول فى برنامج المعاهد العالية ، ولا سيما أنه أول من فتح الطريق إلى العلم · فنالت دراسات القرآن والحديث ، وهى علوم أصول الدين ، الأهمية الأولى فى المعاهد .

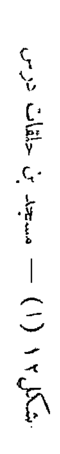
ومما يفخر به الإسلام أنه لم يهمل أو يقلل من شأن فروع المعرفة الأخرى ، وإنما سمح لها بأن تدرس فى نفس المكان الذى درست فيه علوم الدين ، وهو المسجد . وظل المسجد حتى القرن الخامس الهجرى جامعة الإسلام ، وأدت هذه الحقيقة إلى ظهور أعظم خاصية امتازت بها الحضارة الإسلامية ، وهى « الحرية التامة فى التدريس » · فلم يصل المدرس إلى وظيفته عن طريق امتحان ، أو بعد تقديم شهادة أو أوراق رسمية ، وإنما كل ما أحتاج إليه هو الكفاءة والمقدرة والتضلع فى المادة · وجاءت كفاءة المدرس وليدة الطابع العام لنظام التدريس ، إذ كان مسموحاً لكل مسلم حضور الدروس · على أن رواد هذه الدروس لم يكونوا من الراغبين فى التعليم فحسب ، وإنما حضرها

علماء المسلمين من جميع أنحاء الدولة . وافتخر الطالب منهم بأنه تلقى الدرس في معاهد نائية ، وعلى أساتذة يقطنون بلاد قاصية .

وكان مباحاً لأي شخص من المستمعين أن يسأل المحاضر ، والمحاضر الذي يعجز عن شرح النقطة التي تثار ، أو عن إقناع السائل ، يتعرض للفضيحة وضياع الثقة به . وقد وصلتنا بعض التفاصيل عن أنظمة التعليم في الإسلام ، فكان لكل مدرس أيامه وساعاته المحدودة التي يلقي فيها دروسه ، وفي بعض الأحيان لم يكن هناك زمن محدد للدرس . ثم إنه ترك للمحاضر تحديد عدد الدورس التي يلقي فيها الموضوع . ودارت هذه الدروس حول كتاب صنّفه المؤلف بنفسه أو من تأليف غيره ، وأحياناً يقتصر الدرس على مقالة أعدها المحاضر بنفسه أو قام بها شخص آخر . وكان الدرس يلقى في هدوء ، على حين يشتغل المستمعون بتدوينه ، وتأكد المحاضر من متابعة المستمعين لكلامه أو تفهمهم له بإلقاء أسئلة عرضيه عليهم ، وربما ترك مقعده ومشى بين المستمعين يناقشهم في الموضوع .

ومنذ القرن العاشر فصاعدا ، استخدم كبار المحاضرين معيدين ليعاونوا الطلبة على تفهم المواضيع . ثم إن المدرس ظل حتى القرن الحادي عشر يكسب قوته بنفسه ، ولذا اشتغل بعضهم بالقضاء ، على حين تمتع آخرون برعاية السلطان أو أحد الكبراء ، ومنهم أيضاً من اشتغل بتجارة أو حرفة . وقام طلاب الأدب بإعطاء دروس خاصة ، أو الاشتغال ندماء أو بتأليف القصائد في المناسبات من أجل كسب قوتهم . وأخيرا أسس الأمراء المدارس ، وفرضت للمدرسين المرتبات وتمتعوا بالتكريم والإجلال .

ولكن عهد الإنحلال بدأ منذئذ ، إذ أن العصر الذي بلغت فيه الدولة أوجها كان هو نفس العصر الذي بلغت فيه حرية التعليم مداها ، ولم يحد من هذه الحرية



شكل ٢١ (أ) — مسجد به حلقات درس

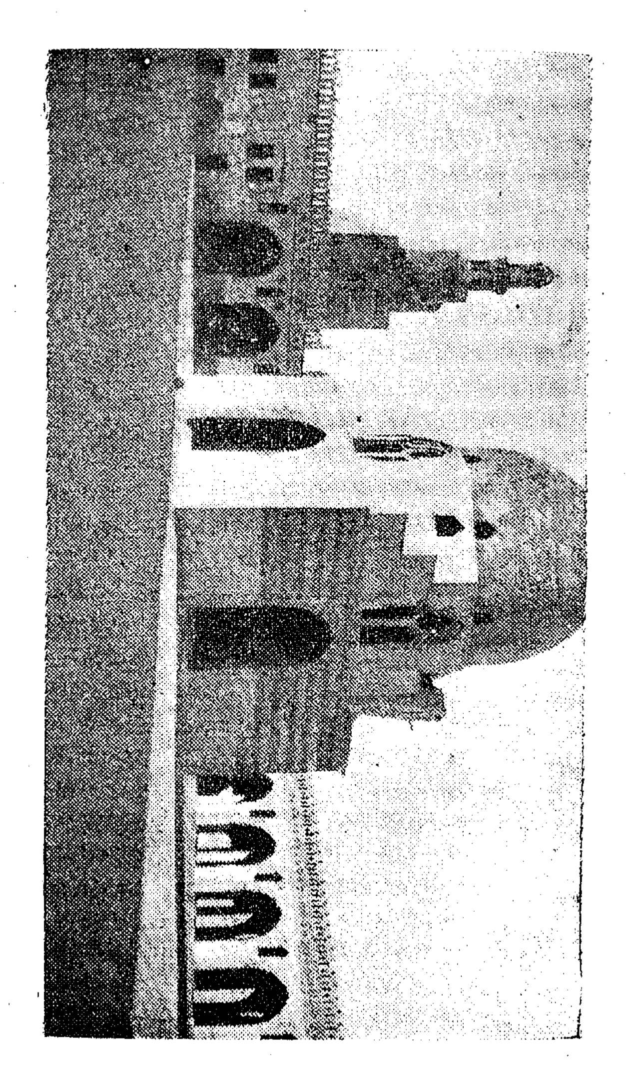
إلا شيء واحد ، وهو حق المؤلف ، إذ لم يسمح لأحد باستخدام كتاب الآخر في درس عام دون إجازة من صاحبه . ثم إن ذلك الحق انتقل إلى ورثة المؤلف بعد وفاته ، فلم يستطع الأساتذة استعمال الكتب في دروسهم إلا بإذن من أولئك الورثة. وكانت الإجازة «أو الليسانس» ، عبارة عن تصريح معتمد يدل على الكفاءة . وأدت المحافظة على قانون حقوق التأليف وتدعيمه إلى حفز المجهود الشخصي على الابتكار والتقدم في ميدان العلم .

ولا يمكن أن نغفل في معالجة تطور العلوم في الإسلام الدور الذي قامت به في ذلك الميدان أمم عديدة دخلت في هذا الدين . فلا بد أن نقرر أن رقة الشعر وكتب الأسمار وشطرا جيداً من الدراسات الفلسفية وكتب التاريخ كان كل ذلك من مواهب الفرس الثقافية . ولا يمكن أيضاً التجاوز عن الحقيقة التي تبين اعتماد العلوم الدينية والشريعة والطب وعلوم الطبيعة إلى حد ما على أصول هلينية ، وأن هذه العلوم تحمل أوجه شبه مع هذه الأصول . ولكن يجب برغم ذلك ألا نبخس قيمة الأثر الكبير الذي تركته العقلية العربية في الحضارة الإسلامية ، وإن كان من الصعب تقدير هذا الأثر تقديرا دقيقا . ذلك أن نفرا من الباحثين أراد أن يبخس أثر العرب في تلك الميادين ، فزعم أن العلماء المسلمين كانوا من أمم مختلفة ، ملكوا ناصية اللغة العربية ، وعاشوا في اتصال وثيق مع العرب ، ودونوا تاريخهم وأشعارهم وأفكارهم ، وألفوا الدراسات العميقة المسهبة في شتى العلوم ، وأنهم لم يستمدوا أصول تفكيرهم في كل ذلك من ينابيع عربية . ولكن ينبغي ألا ننسى أن العرب هم الذين أثاروا في تلك الأمم من جديد الشوق إلى المعرفة ، وأتاحوا لها الفرص لإرضاء هذا الشوق المتجدد . وكذلك يجب ألا ننسى أن دولة عربية هي التي رعت الحضارة والثقافة بشكل رسمي ، وبذلت جهدها لإحياء العلوم والسير بها إلى الأمام .

وعند محاولتنا فهم الدراسات الإسلامية يجب ألا يغيب عن نظرنا أننا ندرس فترة تبلغ خمسمائة سنة تقريبا . فشاهدت تلك الفترة مدا وجزرا فى الحضارة ، كما هو الحال فى تاريخ كل حضارة مماثلة . وقد ظل العلم العربى فى أوجه مدى قرنين ، ولكن حدث فى القرن الثالث إنحلال فكرى إلى جانب الإنحلال السياسى . فاختفت الأصالة فى الإنتاج ، وحل محلها تعليقات وتصنيفات ، وكلما مضت الأعوام كلما غلبت هذه الأنواع على التأليف عامة .

وينقسم النشاط الثقافى عند العرب قسمين رئيسيين ، أحدهما دفعت إليه حاجات العرب الأصلية ، ومن أمثلة ذلك العلوم الدينية والفقهية والتشريع والتاريخ وفقه اللغة ، والآخر لون دفعت إليه رغبة الإنسان الفطرية نحو المعرفة ، ومن أمثلة ذلك الفلسفة والرياضيات والفلك والتنجيم والطب والعلوم الطبيعية والجغرافيا . والدليل على عبقرية العرب أنهم أقبلوا على فروع المعرفة التى دفعتهم إليها حاجاتهم الخاصة ، وبلغوا فى مضمارها شأوا عاليا فى وقت قصير . وأصبح ضبط نصوص القرآن وشرحها أساس العلوم الدينية ، ثم تخلوا عن مبدأ الاعتماد على الرواية الشفهية ، الذى ساروا عليه من قبل ، ولجأوا إلى تدوين الروايات المتواترة ، وأضافوا إليها تعليقات مسهبة .

ثم ظهرت الآراء الدينية التى نشطت نتيجة احتكاك المسلمين بالنصارى ، ولا سيما فى دمشق فى القرن الأولى الهجرى . وترجع إلى هذه الآراء نشأة فرقة المرجئة ، التى قالت بأن الكلام فى مسائل الدين لا يخرج صاحبه إلى الكفر مادام مقيما على الاعتقاد بالله ورسوله . وظهرت فى البصرة فرقة المعتزلة ، التى تناولت مسائل تتعلق بذات الله وصفاته ، وحاولت فى مذهب الجبر ، وذهبت إلى أن للانسان إرادة حرة . وكانت مسألة خلق القرآن موضع جدل زمن العباسيين ، وزاد الإهتمام بهذه المشكلة زمن الخليفة المأمون ، الذى أيد سنة ٨٢٧ م مبدأ



شكل ١٢ (ب) — صحن ومئذنة جامع ابن طولون

القول بأن القرآن مخلوق لا قديم . وعندما انتقل الأشعرى (المتوفى سنة ٣٩٠ ﻫ) من الاعتزال إلى مذهب أهل السنة، وجد الجدل سبيله إلى العلوم الإسلامية، وأصبحت الدراسات الدينية منذئذ تقوم على أساس من الفلسفة المدرسية (الإسكولائية) .

وعلى النقيض من القصائد المتضاربة والآراء الشرعيـة الجامدة فى القرن التاسع ، ظهر المتصوفون ، الذين تشعبت طرق زهدهم بتأثير أفكار الأفلاطونية الحديثة والبوذية ، وأعلنوا نوعا من الحب الإلهى إعتبروه الهدف الأخير للحياة الدينية . فبينما أخذ بعضهم يلقن «الطرق» العديدة التى تؤدى إلى الإمتزاج بالله ، تغنى آخرون بالحب الإلهى فى صفات جميلة . وخير من يمثل هذا التصوف المنظم القشيرى (١٠٧٤ م) والغزالى (١١١١ م) ، على حين تعتبر قصائد ابن الفارض (١٢٣٤ م) وابن عربى (١٢٤٠ م) أبدع ما يمثـل الشعر الصوفى .

لقد رأينا من قبل أن الفقه تفرع زمن الأمويين عن العلوم الدينية ، وأخذ طريق « الحديث » ، أى جمع ما تواتر عن الرسول من قول أو فعل أو استحسان أو إستنـكار . وتناقلت هذه الأحاديث فى الأصل شفاها ، ثم اتضح فى القرن الثانى الهجرى أن المجموعة الـكبرى التى جمعت من الأحاديث غدت فى حالة مختلطة ، فقامت محاولة لترتيبها حسب أسماء الرواة الثقاة ، ثم رتبت أخيرا على فصول وفق الأمور التى تناولتها من فقه أو آثار . وأقدم هذه المجموعات من الناحية الزمنية « هى صحيح البخارى » (٨٧٠) ثم « صحيح مسلم » اللذان يعتبران مع أربعة أخر أصحاب المـكانة الأولى بين كتب الحديث كله فى العالم الإسلامى .

وتعتبر هذه الأحاديث إلى جانب القرآن المصدر الأساسى للتشريع الإسلامى . على أن ظروف الحياة أخذت تختلف وتتشعب بانتشار شمس الإسلام ، وغدت الأحاديث المتداولة لا تستطيع معالجة المشاكل الجديدة الناجمة عن تلك الظروف الناشئة ، أو تقدر على حلها ، ولا سيما فى نواحى الدولة التى قل فيها التمسك بالسنة

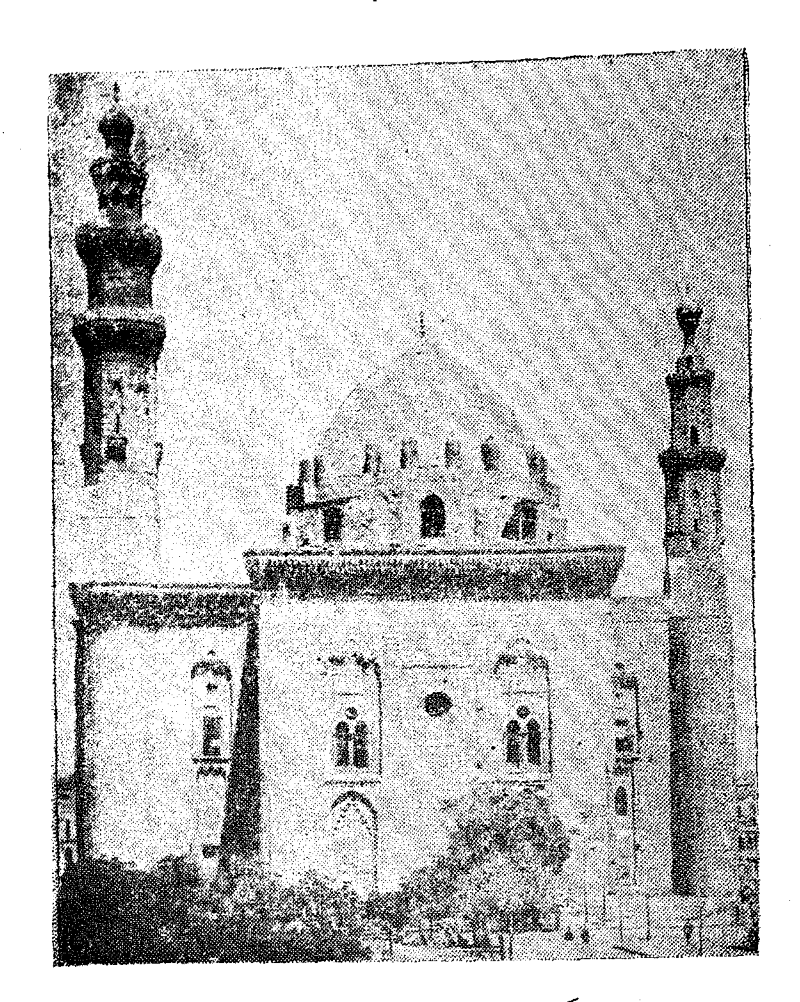
مثل العراق النابض بالحياة والصخب . ومن ثم أضيف عنصر جديد وهو الاجتهاد إلى مصادر التشريع الإسلامى . وزاد إهتمام الناس بعلوم الفقه ، واضطرد تقدمها منذ العصر العباسى الأول ، احتلت مكانا ممتازا ، ولاسيما بعد أن أصبحت السيادة العليا فى الدولة للدين ، على نحو ما كان عليه الحال فى الدولة الفارسية ، التى قال أصحاب الأمر فيها : إن الحكومة والدين توأمان . ولذا اتسمت العقائد الاسلامية منذئذ بذلك الطابع الفقهى الذى تميزت به ، وأصبح الإلمام بالشريعة والإفتاء ، أهم فرع فى العلوم الدينية ، وغدا رجل الدين يسمى إذ ذاك « فقيها » أو « عالما » .

وعرف المسلمون أثناء الفتوحات قوانين جستنيان ، ولذا عندما غدت الأحاديث لا تفى لمعالجة الحالات العديدة التى تطلبت الفصل ، اتخذ المسلمون نماذج فقهاء الرومان ، وهى الاستنتاج التحليلى (القياسى) والحكم الخاص (الرأى) سبيلا لتبسيط التشريع وجعله متفقاً مع العصر . وأدى ذلك إلى صراع عنيف بين القائلين بالاعتماد على الأحاديث وحدها وبين المنافحين عن نظرية التجديد فى التشريع . ومن هذا النزاع ظهرت مذاهب الفقه التى أطلقت التشريع من التقييد المطلق بالأحاديث ؛ وإن كانت قد قيدت استخدام القياس فى نفس الوقت بالتزام أصول الحديث .

ولم يكن أبو حنيفة أول فقيه ، وإنما أقدر فقيه ناصر الأخذ بالقياس . ولم يكن هو أيضا بالقاضى ، وإنما أسس مذهبا للتشريع ، قال عنه فون كريمر ، « إنه وصل بالتشريع الإسلامى إلى أعلى درجة وأرفعها كانت يمكن أن تخرج عن الإسلام فى النواحى الإنسانية » . وما أن توفى أبو حنيفة حتى كانت بلاد الدولة كلها قد قبلت مذهبه رسميا . وعلى هذا المذهب اليوم الأتراك العثمانيون ، ويأخذ به أهل الرأى فى الآستانة وفى البلاد التركية كلها[1] .

---

(١) يلاحظ أن هذا الكتاب نشر سنة ١٩١٩ ، أى قبل إلغاء الخلافة فى تركيا على يد كمال أتاتورك سنة ١٩٢٤ . (المترجم)



شكل ١٣ — جامع السلطان حسن بالقاهرة

وبينما فتح أبو حنيفة باب الاجتهاد فى الفقه على مصراعيه ، اتخذ مالك بن أنس طريق مؤرخ الشريعة . فوضع موسوعة قانونية ، على أساس الشرع الذى اتبع فى المدينة زمن الخلفاء الراشدين ، دون أن ينفق جهده فى عمل مجموعة من الأحاديث فقط . وخفف الشافعى من حدة استخدام الاجتهاد ، وأنشأ مايسمى بعلم أصول الشرع . وانتشر مذهبه سريعا فى الشام ومصر والعراق ، حيث يتمتع بالسيادة

إلى اليوم . وكذلك اتخذ طريقه إلى الهند ومنها إلى جاوة ، ومازال سائدا هناك إلى اليوم . وآخر سلسلة الفقهاء أحمد بن حنبل ، الذى يمثل أبطال التمسك الشديد «بالحديث» . ولكن مذهبه فقد مكانته تدريجيا ، وأصبح الآن قاصرا على جوف بلاد العرب ، ولاسيما عند الوهابيين (١) .

وتلك هى المذاهب الأربعة الكبرى ، التى تسمى فى أوربا بالشعائر الإسلامية ، والتى تمثل أقصى ماوصل إليه المسلمون فى ميدان التشريع ، لافى نظرنا فحسب ، بل وفى نظر المسلمين أنفسهم ، الذين تمسكوا بها تمسكا شديدا ، واقتصر همهم بعد ذلك على تصنيف مؤلفات ذات مجلدات عدة فى التعليق عليها وشرحها ، وفى المساجلة فيها مع بعضهم بعضا . ولم يكن هناك بد من ذكر تطور العلوم الدينية والشرعية الإسلامية فى إيجاز ، لأن المسلمين يعتمدون إلى الآن على نتاج تلك الأيام .

أما عن الدراسات التاريخية ، التى لاحظنا بدايتها زمن الأمويين فليس لدينا مانضيفه إليها عدا أنها لاقت عناية متزايدة من المسلمين ، وأنه أضيف إلى قائمة مؤلفيها بضع مئات من الأسماء . وبعد أن كانت سيرة النبى وأخبار العرب القدامى تشغل الأذهان وتستحوز على النشاط ، اخذت الدراسات فيها بعد طريقة تدوين الحوليات . ولا يمكن لشخص غير ملم بكتب العرب التاريخية أن يكون فكرة عما استغرقه ذلك المجهود الهائل من كد . وهنا نقول أيضا أن الفرس احتلوا فى هذا الميدان المكان الأول .

على أن العرب لم يصلوا فى التاريخ إلى إدراك صحيح له ؛ إلا باستثناء شخص واحد وهو ابن خلدون ، الذى ذكر فى مقدمته المشهورة آراء لها طابع الأيام الحديثة (٢) .

---

(١) يلاحظ أيضا أن هذا الكتاب لم ينشر إلا سنة ١٩١٩ . (المترجم)

(٢) قال فون كريمر إن كل ما ذكره ابن خلدون عن أثر الطعام والمناخ قد شرحه بكل Buckle من الناحية الحديثة فى كتابه « تاريخ الحضارة . ثم إنما تنبأ به المفكرون =

وأصعب من ذلك أن يكوّن الرجل العادى فكرة عن فقه اللغة العربية، ولو أن المادة فى هذا الموضوع غنية جدا . فإذا كان المتخصص يجد بداية ذلك العلم مبهمة غير واضحة ، فما ظنك بما يلاقيه غير المتخصص من عناء ليدرك المجهود الثقافى الهائل الذى يتطلبه إنتاج علم النحو فى اللغة العربية ، على نحو ما قام به سيبويه الفارسى مثلا ؟. ويعطينا ذلك العمل الخالد ، الذى تم فى القرن الثانى الهجرى، وعرف منذئذ فى أرجاء الدولة باسم « الكتاب » فقط ، يعطينا فكرة عن القدرة الفلسفية التى وصل إليها العلماء فى ذلك الميدان ، وعن ميلهم الشديد نحو هذا الفرع من المعرفة .

وإذا كان فقه اللغة يدين فى ظهوره إلى الإهتمام بالقرآن ، أى إلى حاجة قومية ودينية فى نفس الوقت ؛ فإن الاهتمام لم يقتصر إذ ذاك على هذا الميدان وحده ، وإنما تناول أيضا العلوم بمعناها الإنسانى الواسع . وعندما نفكر فى الحضارة العربية يتبادر إلى الذهن مباشرة نشاط العرب وإنتاجهم فى تلك الميادين من العلوم ، إذ لعب العرب ، ونستعمل اللفظ فى أوسع معناه دورا عالميا ، فقد تناولوا ما وجدوه بالدرس ، ووضعوا ثمرة جهودهم بين يدى الأجيال التالية كأساس يبنون عليه .

ولم يكن من المتوقع أن يتمكن العرب خلال قرنين من تطورهم الثقافى ابتكار فروع العلوم المتعددة بأنفسهم ، دون مساعدة من غيرهم . ذلك أن القوانين البشرية تقرر أن كل الشعوب والأزمنة تمد يدها للآخر ، وأن شعلة المعرفة

= العرب قد جاء فى مؤلف بريطانى عن حقوق الدولة . فكتب أحدهم فى عاصمة العالم الحديث على نهر التاميز ، على حين كتب آخر فى شمال أفريقيا فى قلعة قديمة (قلعة ابن سلمة) ، التى ما زالت أطلالها قائمة فى وهران (بالجزائر) على الشاطىء الأيسر لمنى ، وذلك بالرغم مما يفصل بينهما من خمسمائة عام .

لا بد أن تنتقل من قوم إلى آخر ، كأنما لن يتمكن أحد من إشعالها لو انطفأت مرة. ثم إنه من النادر أن ننظر إلى المعارف القديمة فى الأزمنة المختلفة على اعتبار أن بعضها منفصل عن بعض . ولذا فإنه ليس من الإنصاف أن نأخذ على الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى قيامها على أساس من حضارات العصور السابقة .

وفى الوقت الذى ازدهرت فيه العروبة كان تراث الإغريق أثمن ما فى اليد . ذلك أن الحضارة الإغريقية انتقلت زمن سيادة الإغريق والرومان إلى الشام والعراق وامتزجت مع المسيحية . وبالرغم من أن أهل الشام لم يقدروا القيمة الحقيقة لتلك الحضارة فإنهم اعتنوا بها . فترجموا فى أديرة الشام ليس ما يتعلق منها بالدين فحسب ، بل وكل ما يتناول الأمور الدنيوية كذلك . وغدا الشائع أن يكرس الكتاب اهتمامهم الخاص بأرسطو وأبقراط وجالينوس . ثم إن النساطرة الذين اضطهدتهم الأمبراطورية البيزنطية ، وجدوا لأنفسهم مأوى وملجأ لدراستهم عند الفرس . ومن ثم استأنفوا دراستهم فى الهدوء الذى ساد وطنهم الجديد ، وأصبحوا رسل الحضارة الإغريقية إلى العالم أجمع . وفى سنة ٣٥٠ م أسس الملك الفارسى كسرى أنو شروان مدرسة فى جنديسابور ، بغرب فارس ، لدراسة الطب والفلسفة . وظلت هذه المدرسة ، التى تعد نتاجا للحضارة الإغريقية تشع نورها ، وتنهض بالدراسة كذلك زمن العباسيين .

وإلى جانب أديرة الشام ، ومدرسة جنديسابور وجدت العلوم الهلينية وطنا ثالثا لها فى حران من مدائن العراق ، إذ ظل سكانها ، الذين بقوا على عقيدتهم الوثنية حتى القرن الرابع الهجرى ، يتابعون دراستهم الرياضية والفلكية بحماسة لا تفتر ولا تكل ، وانثالت المعرفة من جميع تلك الينابيع إلى العرب . على أنه لا يمكن أن نحدد متى استيقظ العرب تماما للاهتمام بحضارة الأجناس التى دخلت فى طاعتهم مثل السوريان ، والفرس والهنود ، إذ نلاحظ أن بعض مجهودات فردية قامت

زمن الأمويين لدراسة علوم السحر والتنجيم بصفة خاصة . ولكن كان طبيعيا أن يتجلى أعظم احتكاك حيوى بين تلك الثقافات عندما أصبحت الديانة الجديدة حلقة الاتصال بين الحاكم والمحكوم . ويصعب تحديد الوقت الذى حدث فيه ذلك قبل اعتلاء العباسيين العرش ، إذ بدأت زمن المأمون (٨١٣—٨٣٣ م) حركة الترجمة على نطاق واسع ، حيث أوفد المسيحيون إلى الأمبراطورية الرومانية الشرقية للبحث عن الكتب الجديدة ، كما نقب المسلمون فى أسفارهم عن المؤلفات النادرة ، وعهد الأغنياء إلى المترجمين بترجمة الكتب كذلك وأجزلوا لهم العطاء .

ولم يكن كثير من المترجمين فى ذلك الوقت يلمون بالعربية بحيث يمكنهم النقل مباشرة من العلوم الإغريقية إلى العربية . ولذا ترجموا من الإغريقية إلى السريانية ، واستخدموا آخرين لينقلوا بدورهم من السريانية إلى العربية . ومن المقطوع به أن النصوص قد نالها فى مثل تلك الأحوال شيئا من التحريف . غير أن الرغبة فى وضع ترجمة صحيحة دعت إلى ظهور عدة تراجم عديدة ، الواحدة منها أحسن من سابقتها .

ونالت كتب الفلسفة والرياضيات والطب أعظم جانب من عناية العرب . أما فى ميدان الفلسفة فمن حسن حظ المسلمين أنهم جعلوا نقطة بدايتهم فيها ، الفلسفة الارستطالية وليست الأفلاطونية أو فروعها الحديثة . ذلك أن الفلسفة الارستطالية اتصفت بدقة الملاحظة والتعلق الشديد بالمثل العليا ، التى من شأنها صرف الإنسان عما عداها من أمور . ولذلك كان أرسطو معلم العرب الأول ، وتقبلوا تعاليمه دون نزاع ، وغدت زعامته فيما عدا أمور قليلة زعامة لا يناقش فيها أحـــد . فنقلت إلى العربية جميع كتب أرسطو المعروفة إذ ذاك .

ولا يمكن الدخول هنا فى تفاصيل مظاهر نشاط حركة الترجمة زمن الخلافة .

ولكن يمكن أن نستعرض فى إيجاز ما حققه العرب فى فروع المعرفة المختلفة .
وجّه العرب جانبا كبيرا من اهتمامهم فى ميدان العلوم إلى الرياضيات . فأخذوا فى القرن التاسع العلوم الرياضية عن إقليدس ، ونظام الكسور العشرية عن الهنود ، ثم قاموا فى ذلك الميدان بتقدم سريع وجوهرى . وكانت علامة الصفر خطوة على جانب عظيم جداً من الأهمية فى تصحيح الحساب . وكما ساعدهم نظام الأعداد العربية على إدراك الكمال فى الطرق الأولية للحساب ، فإن معرفتهم خصائص الأعداد الفردية والزوجية ، وما بينها من العلاقات ساعد على استخراج الجذور التربيعية والتكعيبية . ثم إنهم استعانوا بالهندسة أيضاً فى حل المعادلات الجبرية ذات الدرجة الثالثة والرابعة .

وحوالى سنة ٨٢٠ م ألف الخوارزمى الرياضى كتابا لتدريس الجبر ، ودعمه بالأمثلة . وظل الغربيون يستخدمون تلك المقالة الأولى التى ترجمت إلى اللاتينية حتى القرن السادس عشر الميلادى . ويتجلى لنا مبلغ ما لقيته الهندسة من هوى فى نفوس العرب عندما ندرك مبلغ تقدمهم فى ميدانها ، واستخدامهم الزخارف الهندسية الظاهرة الرائعة فى الفن العربى . (أنظر الشكل رقم ٢٠ — وهو باب مسجد سيدى أبو مدين ، والشكل رقم ٢١ ، وهو قاعة الأختين فى الحمراء) .

ومن تراث العرب علم حساب المثلثات ونظريات الزوايا والتماس . ولم يكن فى استطاعة بيوبارخ ورجيومونانوس وكوبرنيق أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه دون أساس من علوم العرب ، وما ساهموا به فى ميدان الرياضيات . ذلك أن العرب أحبوا تدعيم نظرياتهم بنماذج عملية ، وساعدهم ذلك على وصول درجة الكمال فى علم الجوداسيا (مقياس سطح الأرض) الخاص بقياس ارتفاع الجبال واتساع الوديان ، أو حساب المسافة بين نقطتين تقعان على سطح منبسط .
واستخدم العرب هذا العلم أيضاً فى تصميم مجارى المياه ، وتطبيق مبادىء الميكانيكا

فى صناعة الآلات الحربية والموازين الحساسة · وأخذ العرب عن الإغريق طريقة إيجاد الوزن النوعى ، كما ابتكروا وسائل وأدوات جديدة سهلت الاستفادة به · ثم إن بحارتهم استخدموا أيضا البوصلة، التى اخترعها الصينيون لتهديهم فى أسفارهم إلى سيلان والصين ، وعن العرب أخـــذ البحارة الإيطاليون البوصلة ، التى كان يتعذر عليهم بدونها القيام بالرحلات البحرية الكبرى التى شاهدها القرن الخامس عشر الميلادى .

ولم تكن مطالب العرب العملية هى الدافع فقط على دراسة العلوم الطبيعية ، إذ أنهم قاموا بأبحاث فى ميدان البصريات · فاعتنق العرب بعد دراسة أعمال إقليدس وبطليموس ، نظرية أفلاطون القائلة بأن الرؤية تتم بواسطة أشعة ترسلها العين على الأشياء . ولكن غالبية علماء المسلمين كانوا من أنصار نظرية أرسطو التى ترى أن المرئيات ماهى إلا تأثير أشعة الضوء المنبعثة من الأشياء إلى العينين . وصرف المسلمون همهم إلى دراسة المرئيات ، أى كيفية ظهور الأشياء فى مختلف الظروف ، وأين يتكون الشكل · فبحث المسلمون فى عناية المرئيات الخادعة ، التى تحدثها إنكسار الأشعة وغيرها ، على ضوء النتائج التى استمدوها من إقليدس وبطليموس . وقد وضع ابن الهيثم (١٠٣٨ م) ، الذى عرف فى العصور الوسطى باسم « الهازن » نظرية عن المرئيات لحل هذه المسألة · وظلت تلك النظرية هى السائدة فى ذلك الميدان حتى العصور الحديثة .

وإلى جانب هذه الأبحاث قام ابن الهيثم ، على ضوء نماذج يونانية ، بتجارب على المرايا الكرية والمثلثة ، وابتكر طريقة صحيحة لإيجاد البعد البؤرى · ونقل روجر بيكون نتائج هـذه الدراسات إلى طلبة الغرب . وكذلك قام ابن الهيثم بأبحاث أخرى خاصة بما يسمى الغرفة المظلمة (أو آلة التصوير) «Camera Obscura»

التى كان هو أول من استخدمها . ويعزى إليه أيضا إكتشاف التمييز بين الظل وشبه الظل ، وترجمت رسالة ابن الهيثم عن المرئيات إلى اللاتينية والإيطالية ، واتخذها كبلر (Kepler) مرجعا اعتمد عليه فى أبحاثه . وكذلك يبدو أن ليوناردو دافنشى عرف أعمال ابن الهيثم واستخدمها .

وكان الفلك من أحب الدراسات إلى العرب بعد الرياضيات • فالنجوم منذ الأيام القديمة هى هادى العرب فى الصحراء • ثم إن أهل بابل قاموا بدراسات خاصة بالسماء ، وحاولوا قراءة المستقبل عن طريق النجوم • وتجدد الاهتمام بهذا العلم بعد ترجمة كتاب بطليموس ، ثم زاد الإقبال عليه بعد ترجمة « السيد هانتا » وهو كتاب الفلك عند الهنود القدماء . وتقدم المسلمون فى هذا الميدان تقدما فاقوا فيه أساتذتهم ، فأقيمت المراصد زمن المأمون فى كثير من نواحى الدولة ، ونجح المسلمون بفضل تبادل الملاحظات فى مراجعة جداول بطليموس الفلكية ، وفى تحديدهم بشكل دقيق ميل سمت الشمس وكذلك مدار الشمس والقمر والكواكب • وحدد البيرونى بطريقة بارعة مقدار محيط الكرة الأرضية ، كما حدد المسلمون فى جميع أنحاء الدولة اتجاه القبلة فى الجوامع بفضل الفلك وعلم الرياضيات •

وعرف العرب كذلك أن ضوء القمر مستمد من الشمس ، ولكن أخطأوا فى أن الأرض مركز الكون . وكان معلم أوربا فى هذا الميدان إثنين من أقدم الفلكيين المسلمين ، وهما الفرغانى والبتانى (٩٢٩ م) ، الذين تمتعا بشهرة دائمة تحت اسمى الفراجانوس Alfraganius ، والباتيجنيوس (Albategnius) • ومما يدل على أن الغرب مدين لما قام به المسلمون من دراسات فلكية فى العصور الوسطى تلك المصطلحات الفلكية العديدة ذات الأصل العربى ، مثل سمت الرأس وسمت السموت وسمت القدم والندير . ومن المعروف أن التنجيم سار دائما

جنبا إلى جنب مع الفلك ، وربما كان التنجيم حافزاً شجع على دراسة الفلك ، أو أنه على الأقل لم يقف عائقاً فى سبيله .

غير أن بعض الشخصيات المستنيرة مثل ابن سينا ، ابتعدت عن تيار الخرافات ، وشنت الحرب على المنجمين والدخلاء على أهل الكيمياء . ولكن لا يمكن أن ننكر ما كان لأهل الصنعة من فضل على تشجيع التجارب الخاصة بتحسين العقاقير الطبية . ويعد جابر بن حيان أقدم من حضر العقاقير من المشتغلين بالكيمياء ، وهو الذى ظل الناس حتى العصر الحديث يخلطون بينه وبين جبر ، الذى كان له أثر كبير على العلوم فى الغرب . وفضلا عن ذلك فإننا نظفر فى كتب العرب بمعلومات عن الكيمياء لم يسبقهم إليها أحد فى الأزمنة السالفة لهم . فأجادوا طرق الصهر والإذابة ، والترشيح والتبلور والتقطير والتسامى . ثم إنهم عرفوا الشبة ونترات البوتاس والقلويات المجهزة من ملح الترتار ونترات البوتاس . ونشاهد عندهم أيضاً لأول مرة معرفة بأكسدة الفلزات .

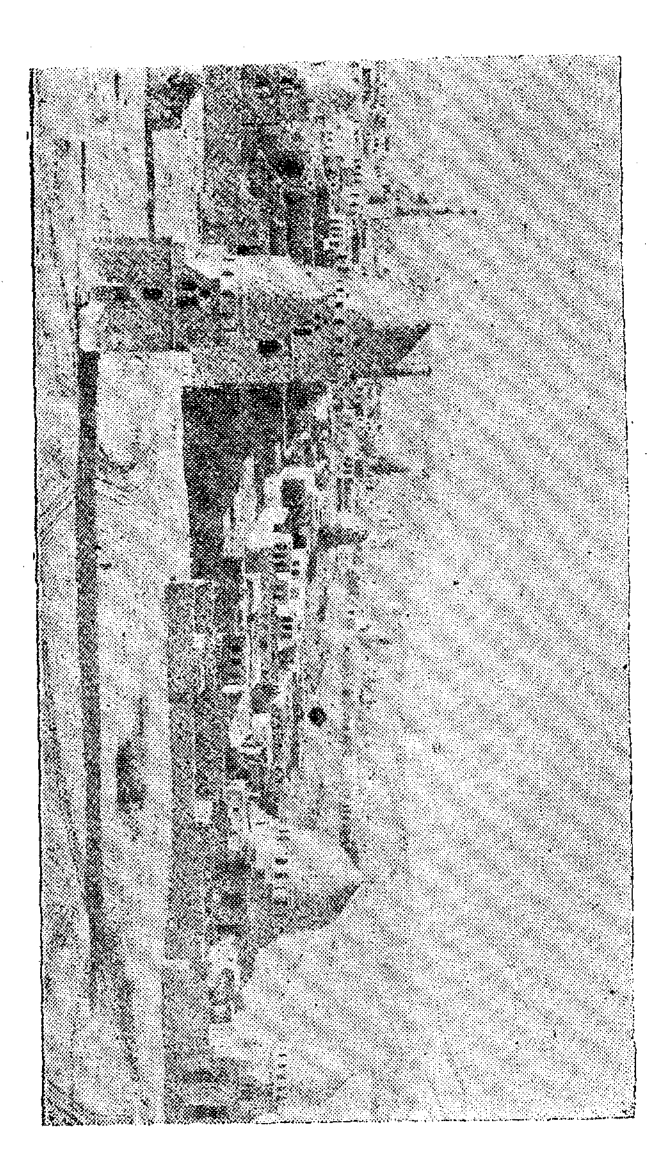
وتجلت المجهودات الرائعة التى قام بها العرب فى ميدان الكيمياء فى زيادة أنواع المواد المجهزة تجهيزيا صناعيا ، وفى تحسين الطرق التى وصلتهم عن الأغريق تحسينا تاما ، وتطبيقها على معظم المواد المختلفة . وإن تفوق العرب الواضح على الأغريق فى هذا الميدان يعزى إلى استخدامهم للتجارب العملية فى إستجلاء الغموض والمظاهر المبهمة فى دراسة الطبيعة ، وذلك على حين اعتمد الأغريق الأول على التأملات البحتة . غير أنهم لم يصلوا درجة النجاح التام فى بعض المواد ، مثل التشريح ، لأن الدين قيد نشاطهم فيه . ولذا لم يتقدم الطب العربى عن أعمال جالينوس ، وإن كانوا قد أدركوا نصيبا كبيرا من النجاح فى ميدان الرمد ، وعلم الأمراض .

وتقدم العرب أيضا بشكل عظيم فى فن التمريض واستخدامه فى المستشفيات

العامة . ثم أن الملاحظات التى شاهدوها والتجارب التى أفادوها ، قد جمعت فى أقوال ابن عباس المجوسى ، الخاصة بالتغذية المناسبة لحفظ الصحة والجسم . وإذا كان الأطباء الأول فى بلاط بغداد ، فيما عدا الهنود ، قد انهمكوا فى ترجمة مؤلفات أسلافهم إلى العربية ، ولا سيما أعمال ديوسقور وأبقراط ، فإن الأطباء المتأخرين إستطاعوا إبعاد أعمال جالينوس وأبقراط ، وأحلوا مكانها كتبهم الخاصة فى معاهد الدراسة لمدى قرون طويلة . وأقدم رجال هذه الطبقة ذات المؤلفات المبتكرة هو محمد ابن زكريا الرازى (٨٥٠ — ٩٢٣ م) ، الذى وضع موسوعة عن الطب فى عشرة مجلدات . وجاء ابن سينا (أڤيسينا عند الغرب) بعد الرازى ، واشتهر بمؤلفه فى الطب ، المعروف باسم « القانون » وغدا هذا المؤلف ، وكذلك الجزء التاسع من موسوعة الرازى (رازس عند أهل أوربا) أساس المحاضرات التى ألقيت عن الطب فى جامعات أوربا حتى القرن السادس عشر .

على أن نجاح العرب لم يكن على درجة واحدة فى جميع العلوم التى أسهموا فيها . فبينما نالوا درجة ممتازة فى علم المعادن والنبات ، كان علم الحيوان أقل العلوم حظا من النجاح . فاهتموا كثيرا بعلم النبات لما له من أهمية فى العلوم الطبية ، وأظهروا فى ميدانه كثيرا من الكشوف . ولكن إذا كان العرب قد امتازوا بالملاحظة فإنهم لم يتفوقوا فى ميدان جمع هذه المواد وترتيبها على هيئة منسقة .

ثم إن المنطق شحذ عند العرب أسلحة النقد والجدل ، فبدأ العقل يناقش مسائل الدين ، ووجدت الحرية وسعة الأفق متنفسنا لها فى لون جديد وهو السفر والارتحال . وكان الدين أول حافز على تلك الأسفار الواسعة ، إذ فرض الحج على المسلمين الذهاب إلى الأماكن المقدسة ، على حين أتبع المسلمون ذلك بزيارة المسجد الأقصى فى بيت المقدس ، كما ذهبوا أيضا إلى قرطبة . ثم إن اللغة العربية غدت لسان الناس ، واللغة السائدة أيضا فى المساجد وفى التعليم من حدود الهند إلى



شكل ١٤ — منظر لمدافن المماليك بالقرب من القاهرة

مراكش . ولذا صار فى إستطاعة المسلم ، حيثما كان وطنه أن يحضر الدروس فى المساجد ويناقش فيها .

وشجع على هذه الأسفار الواسعة أيضاً ما تمتعت به الطرق من طمأنينة فى ظل حكومة حازمة . فمضى علماء الدين فى أنحاء الدولة يجمعون الأحاديث من سلالة الصحابة المتأخرين ، كما التمس النحويون أصول لغة القرآن والأشعار القديمة عند الأعراب فى الجزيرة ، وتجشموا فى سبيل ذلك شظف العيش والتعرض للأخطار . وفى نفس الوقت سعى محبو العلم إلى تلقى المحاضرات عن الأساتذة المشهورين المتخصصين فى المواد ، ولو كانوا يعيشون فى أقصى أطراف الدولة . ولذا لم يكن عجباً أن تزداد المعلومات الجغرافية فى تلك الظروف ، وتدون كتب المسالك وتوضع المؤلفات الجغرافية القيمة .

وكان ذيوع المعارف الجديدة وتناقل الأفكار الحديثة بين أرجاء الدولة أمراً عظيم الفائدة بالنسبة لمظاهر الحضارة ، وإن كان لها خطرها كذلك على نظام الدولة نفسها . ومن ذلك ما نسمعه عن استقبال خراسان بالحفاوة لأحد مروجى الآراء الحرة ، وكيف أن مكيا سمع وهو فى بغداد أن أهل هذه المدينة قضوا على مذهب الحلول والقائلين به ، وعندما عاد إلى بلده ، وكان مذهب الحلول مازال متفشيا فيها ، قال « لقد اعتقدت مذهبا جديدا » .

وهكذا كثرت المعتقدات نتيجة ازدياد الثقافة بين الناس ، ومعرفتهم بالعلوم الرياضية والطبيعية والمنطق . وبالرغم من وسائل القمع التى لجأت إليها الدولة فإن أنصار مذهب التفكير الحر ساروا فى طريقهم قدما وفى جرأة . ثم ان الناس أدركوا بمرور الزمن أنه ليس مما يخالف الدين وجود أكثر من أمير واحد للمؤمنين فى العالم الإسلامى . ذلك أن أسبانيا قد استقلت منذ زمن بعيد ، كما استقل المغرب

أيضا بأموره ، ولم يبق للعالم الإسلامى من مظاهر الوحدة غير البحث عن الحقيقة والرفاهية ، إذ انقسم هذا العالم من الناحية السياسية إلى دول عديدة . على أن ذلك لم يؤد إلى كارثة أو يودى بالحضارة . ثم إن قضاء المغول بقيادة هولاكو على خلافة العباسيين فى بغداد سنة ١٢٥٨م ، وتحطيم العاصمة وتخريب آثارها دون شفقة ، وطمس تراث العلم والفن هناك ، لم يترتب على ذلك زوال الحضارة الإسلامية ، إذ ظلت هذه الحضارة تسير دون اضطراب فى مجراها الهادىء المنفرد فى شمال إفريقيا وأسبانيا الإسلامية ، حيث حافظتا على تراث الفنون الإسلامية التى ننعى ضياعها فى الشرق .

الفصل السادس

المغرب والأندلس

لا بد لقيام الحضارة من سلطان ثابت الأركان ، إذ أن هذا السلطان يعد أساس النظام الاجتماعى والنشاط التجارى ، وكذلك العمود الفقرى للرخاء القومى كله ورفاهية المجتمع . ومن ثم وجدت سائر فروع المعرفة تربة خصبة لها فى رقعة الدولة الإسلامية الشاسعة ، وكلما ازدادت هذه الدولة اتساعا ، كلما نشطت العلوم ووجدت أجواء صالحة لازدهارها . وكان من حسن الطالع ليس للحضارة الإسلامية فحسب ، بل ولأوربا كذلك أن أخضع العرب كل ساحل أفريقيا الشمالى وطرف أوربا الجنوبى الغربى لدولتهم ، التى ارتكزت على محور له قطبين ثابتين هما الخلافة والقرآن .

ولم تكن مهمة العرب يسيرة لإدارة رقعة شاسعة ، يسكنها أناس مناضلون متماسكون ، إذ قضوا نيفاً وعشرين سنه فى تأمين ما فتحوه من نواحى مصر وطرابلس ، التى سلمت أمام هجمات الجيوش الإسلامية الأولى . ثم إن الجهود التى بذلها عقبة بن نافع ، الفاتح الحقيقى لشمال إفريقيا ومؤسس معسكر القيروان أيام حملاته التى تشبه الأساطير فى غرابتها ، قد ضاعت كل هذه المجهودات بعد وفاة هذا القائد سنة ٦٣ هـ ، وارتد أهل المغرب عن الإسلام . ثم إن القيروان نفسها سقطت فى أيدى البربر وانكمشت الحدود الإسلامية إلى برقة .

ولكن بعد ست سنوات أخرى نجحت المحاولة الاسلامية الثالثة ، إذ بعد

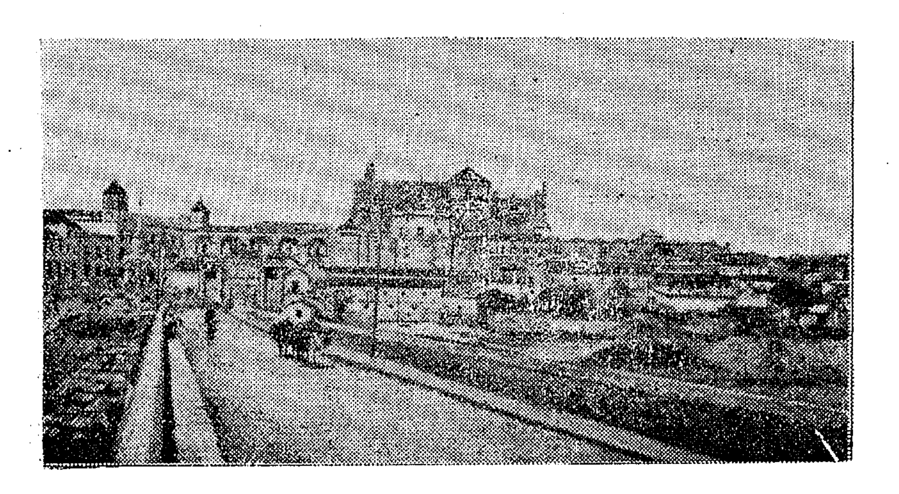
نضال شاق ، تعثر فى بدايته بالكوارث مع البيزنطيين والبربر ، دمرت قرطاجنة واختفت الكاهنة زعيمة البربر ، وانتزعت البلاد من الامبراطور قنسطنطين . ثم إمتدت الحدود الإسلامية على يد موسى بن نصير إلى طنجة بين سنتى ٨٧، ٩٠ هـ (٧٠٦ — ٧٠٩ م) .

وفى سنة ٧١٠ م بدأ فتح أسبانيا ، وتاريخ هذا الغزو معروف ، إذ قاد أحد موالى موسى بعثا إستطلاعيا قوامه ٥٠٠ جندى ، وغزا الطرف الجنوبى لشبه جزيرة أيبيريا ، ثم إن مولى آخر ، وهو طارق ابن زياد عبر الزقاق فى سنة ٧١١ م إلى أسبانيا فى سفن قليلة ، مصطحبا معه ٧٫٠٠٠ رجل كلهم من البربر . وفى نفس السنة هزم المسلمون البالغ عددهم ٢٥٫٠٠٠ جيش لذريق البالغ عدده ٩٠٫٠٠٠ ، ثم سقطت قرطبة وطليطلة . والمعروف أن الغيرة دبت فى نفس موسى لما أصابه قائده طارق من فوز ، فكتب إليه يؤنبه ، ويقال إنه ضربه أسواطا فيما بعد . ثم عبر إلى الأندلس بقوات جديدة وأتم هو فتح شبه الجزيرة .

وعندما استدعى الخليفة الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير ، عهد هذا الوالى إلى أبنائه بالولايات المفتوحة ، وعاد إلى الشرق محملا بالغنائم والأسرى قاصدا دمشق . ولكن الخليفة الوليد لم يكن راضيا عن الأسرة كلها ، وأبى إقرار الخطوة السالفة . وبدأت تتكرر منذئذ قصة عدم ثقة السلطة المركزية فى الحكام المحليين ، خشية استقلال الحكومات المحلية بشئونها عن الخلافة . وكان من الواضح أن مخاوف الخلافة من انفصال المغرب والأندلس أمر سيتحقق عاجلا أو آجلا .

وإذا كان سلطان الخلافة لم يصل بعد إلى جبال ألبرت (البرانس) فإن شيوع اللغة والدين ، جمع هذه الأقاليم كلها على وحدة لا تنفصم عراها . وغدت هذه الوحدة اللغوية والدينية أهم بكثير من وحدة الخلافة ، إذ ارتكزت سائر مظاهر

النشاط الثقافى فى المغرب وأسبانيا فى تلك الأيام على الإهتمام العظيم بالقرآن ، وما يرتبط به من فروع المعرفة إذ ذاك . ويعزى إلى تلك الوحدة اللغوية جعل الدراسات الإسلامية وثمارها من خراسان إلى أسبانيا ملكا مشاعا بين العالم الإسلامى أجمع . فحيثما سافر المسلم المثقف ، فما عليه إلا أن يتوجه فقط إلى المسجد ليشعر أنه فى وطنه ، إذ لم تكن العربية لغة العبادة فحسب ، بل أداة التعليم كذلك ، وسبيل هيأ لكل كتاب دوّن بها فى الشرق أو الغرب أن يكون ملكا مشاعا بين الجميع . ولذلك فإن الفتوح العربية أولا ، وغريزة السيادة التى فطر عليها العربى ثانيا هى التى شقت الطريق أمام الثقافة غربا ، وساعدت على انتقال علوم اليونان والهند عبر شمال أفريقيا إلى أوربا .



شكل ١٦ — مسجد قرطبة الجامع

وإنه لمن العسير وغير المجدى أن نتتبع إنتقال فروع العلوم من إقليم إلى آخر ، وندرسها على حدة فى كل مكان ، لأن ذلك يجعل الحديث مكررا . ويكفى أن نقول ، أننا نستنتج مما وصلنا من ذخائر العرب أن المدارس تأسست فى كل مكان ،

وأن رجال العلم كانوا موضع التشجيع فى مصر وتونس ومراكش . ثم إن المؤلفين قرنوا أسماءهم بالأماكن التى عملوا فيها ، مما يجعلنا نستدل من أسماء أولئك المؤلفين على الولاية أو المدينة أو القرية التى عاشوا فيها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب . ولكن يجب أن نقتصر على قرطبة ، منافسة بغداد .

كان الأمويون الذين طردوا من الشرق هم القابضين على أزمة الأمور فى قرطبة منذ منتصف مايو سنة ٧٥٦م ، وذلك باعتبارهم «أمراء الأندلس» . واقترن حكمهم الذى طال مائتى وثمانين سنة بأنه أزهى عصور الحضارة العربية فى أسبانيا. فتقدمت الصناعة تقدما باهرا فى البلاد ، حيث ظهر نظام ممتاز للرى والمنشآت المائية ، ودخلت منتجات زراعية من الشرق ، مثل الأرز وقصب السكر والنخيل والمشمش والرمان ، وقامت تجارة رائجة بين قرطبة وساحل أفريقيا الشمالى ، وكذلك مع أواسط أفريقيا حتى السودان ، ونشطت صناعة الحرير فى قرطبة ، حيث اشتغل بها فى أوج عزها نحو ١٣٠٠٠٠ عامل ، وذلك كله إلى جانب إزدهار العلم والفن .

وتعتبر العذوبة الخالصة فى جمال الكلمات وتنسيقها إحدى مميزات العرب البارزة . ومن ثم انتقلت أشعار لا تحصى من شفاه عن شفاه ، ويعجب بها كل من الكبير والصغير ، ليس لمعانيها الشعرية فحسب ، بل لعباراتها الجزلة كذلك . وغدا الشغف بالشعر عظيما فى كل العصور وفى كل البلاد التى تكلمت اللغة العربية ، وبلغت هذه الحقيقة ذروتها فى أسبانيا ، إذ أجاد الجميع ، من الملك إلى الفلاح ، قول الشعر ارتجالا ، كما صارت مطارحة الشعر أعظم إنتاج ثقافى ، ينال التقدير الخاص . ومما يدعو إلى الدهشة كثرة الشعراء بالأندلس ، ثم إن كل خليفة أموى قرض الشعر ، وكان أولهم شاعراً ذا مواهب عالية . ووضع كاتب فى القرن الثالث

عشر مؤلفاً شاملا عالج فيه ملوك العرب فقط وأقطاب الرجال ، الذين اشتهروا في ميدان الشعر ، ومجرد قائمة بأسماء الشعراء الأندلسيين كفيلة بأن تكون مجلدا .

وارتبطت الموسيقى والغناء بالشعر كذلك . وكان أحد الموسيقيين فى بلاط عبد الرحمن رجلا ذا ثقافة نادرة ، إذ نظم الفلك والتاريخ شعرا ، مما أتاح له تناول راتب الأمراء ، وعاش حياتهم . ولم تكن الصدفة وحدها هى التى جعلت من أعظم موسيقيي قرطبة شهرة ، شاعراً وفلكيا فى نفس الوقت ، وفى قدرته سرد أشياء رائعة عن جميع البلاد ، ذلك أن قرطبة كانت إلى جانب مباهجها مركزاً هاماً للدراسة ، جعلها بغداد الغرب .

وكرس عدد لا يحصى فى قرطبة نفسه للعلوم الدينية والفقهية ، وأطلق عليهم اسم الفقهاء . وعندما أحسوا بقوتهم زمن الأمير الثالث ثاروا عليه . ولكن بعد أن رفعوا راية العصيان مرة أخرى دمر ذلك الأمير « ربضهم » الذى كانوا يقطنون فيه ، ورحل من سكانه ٦٠٫٠٠٠ من الأندلس .

وخير من يمثل لنا ما وصلت إليه الأندلس فى اللغة هو أبو على القالى ، وأبو بكر الزبيدى ، أما فى التاريخ فلدينا أحمد بن محمد الرازى ، وأبو بكر بن القوطية . على أن مسلمى الغرب تأخروا تأخراً وقتياً عن زملائهم فى الشطر الشرقى من الدولة الإسلامية فى فروع المعرفة التى تناولت دراسة اللاهوت . فلم يظهر إلا فى عهد متأخر التراجم عن الإغريقية والهندية فى الغرب . وكان الغافقى أعظم من أجاد الفلك إذ ذاك ، على حين تفوق المجريطى فى العلوم الطبيعية والرياضيات . وخطا الطب أيضاً خطوات واسعة بفضل ابن جلجل ، وأبو القاسم (المعروف باللاتينية بأبو الكاسيس Abulcasis) ، الذى يعتبره الغرب أعظم جراحى العصور الوسطى .

وتكشف دراسة حياة العلماء ونشاطهم فى القرن الحادى عشر عن الخصب الثقافى الذى ساد القرن السابق مباشرة . ثم إن تفكه الغرب بأن حضارة الإسلام لم تزدهر ولم تثمر إلا فى التربة الأوربية ، قول خاطئ . ذلك أن الحضارة الإسلامية بلغت الذروة فى الفنون والعلوم فى التربة الأسيوية بالقسم الشرقى من الدولة .

ولكن مما لا شك فيه أن بيئة قرطبة كانت ملائمة لتلقى فنون المعرفة ، إذ اشتهر الأندلسيون بحب اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات . فحوت مكتبة القصر فى عهد الحكم المستنصر ٤٠٠٫٠٠٠ مجلد ، ونافس الأثرياء بعضهم بعضا فى اقتناء الكتب ، على حين حاول محدثو النعمة ترقية مستواهم . وأخذت مصانع الورق فى طليطلة وشاطبه تزود البلاد بالأدوات الكتابية ، واستدعى النساخ من جميع أنحاء العالم ، حتى من بغداد القاصية ، وأصبح تجليد الكتب صناعة زاهرة . ولم يجد الامبراطور البيزنطى هدية تدخل السرور على عبد الرحمن الناصر غير نسخة جميلة من « علم الأقرباذين لديوسقور » . وذهب الراهب نيقولا إلى قرطبة لينقل هذا الكتاب إلى العربية ، لأنه لم يوجد بهذه المدينة إذ ذاك أحد يعرف اليونانية .

ومما يشهد على روح التسامح التى سادت هذا العصر ، الصداقة المتينة التى توثقت بين الراهب المسيحى الذى كرس نفسه للصيدلة والعقاقير وبين العالم اليهودى حسداى بن شروط ، الذى تمتع بمكانة كبيرة فى بلاط أمير المؤمنين . ونلاحظ فى قرطبة انتشار اللغة العربية وتفوقها على غيرها من اللغات تفوقاً باهراً ، إذ بين أيدينا نص لألفارو الشريف القرطبى النصرانى يشكو فيه انصراف شباب قومه من الأسبان إلى قراءة أشعار العرب وقصصهم ، ودراسة كتابات فقهائهم وفلاسفتهم . وفى الحقيقة لم يعرف الشباب الذكى فى ذلك الحين غير اللغة العربية ،

وأنفقوا أموالا طائلة فى شراء الكتب ، مما يدل على أن ذلك الأدب كان موضع إعجابهم وثنائهم .

هذه هى حالة الحضارة الإسلامية فى مركزها الغربى بقرطبة ، أوائل القرن الحادى عشر . غير أن ثورة مفاجئة نشبت ، وقبض الحجاب من الصقالبة والبربر على دفة الدولة ، وغدت قرطبة مسرحاً للنزاع والحروب الأهلية مدى عشرين سنة . وعندما تخلى هشام الثالث ، آخر الأمويين عن العرش سنة ١٠٣١ م ، كان نصف قرطبة قد عمه الخراب ، وأضحى موحشا قليل السكان .

وبذلك بدأ عهد أهل المغرب فى الأندلس ، وتقلد أعنة الحكم أسر متفرقة متنافرة ، فى سرقسطة وأشبيلية وغرناطة ومالقة والجزيرة الخضراء وبطليوس وبلنسية ومرسيا ، ولم تعد هذه الأسر قادرة على مقاومة الزحف الأسبانى المسيحى . وإن انهيار دول المسلمين بالأندلس شيئاً فشيئا يعتبر مأساة سياسية على أن تلك الفترة ذات أهمية خاصة فى حضارة العرب والغرب . ذلك أن الحروب الأهلية أفزعت العلماء ، الذين هجروا قرطبة إلى المدن الأخرى مثل أشبيلية وغرناطة وطليطلة . وتمتعت أشبيلية مدى فترة قصيرة بازدهار عظيم ، إذ بلغ سكانها فى عهد بنى عباد ٤٠٠,٠٠٠ ، وغدت مركز المرح والسرور فى الأندلس إذ ذاك على نحو ما هى عليه اليوم .

وكان يقال فى هذا العصر الزاهر أن أروج أسواق الكتب سوق قرطبة ، وأروج أسواق الآلات الموسيقية سوق أشبيلية . وفى الحقيقة تعتبر أشبيلية موطن الموسيقى والغناء ، وجميع المباهج التى ترتبط فى أذهاننا بذكر مسلمى الأندلس وحياتهم فى سهول أسبانيا الزاهرة . وكانت أشبيلية كذلك بلد الحدائق الرائعة الجمال ، ومعارض الزهور التى لا تجارى فى أسبانيا . ونتيجة تطعيم أشجار اللوز بشتل الورد ، ظهر ورد أشبيلية الشهير ، آخر الذكريات الحلوة ، الباقية عن هذه

الأيام المرحة الطروب . ومما شجع على المباهج التى امتازت بها أشبيلية ، الجنس اللطيف وانغماسه فى تلك الملذات . ومن ذلك أن زوجة الأمير المعتمد بن عباد ، وهى اعتماد الرميكية ، رأت يوماً بعض النسوة القرويات يعجن لبناً ، ويسرن والطين يغطى أقدامهن . فقالت لزوجها : « أتمنى لو أستطيع أن أفعل ومعى عبيدى مثلما يفعله أولئك النسوة ! » . فأمر المعتمد تواً بأن ينثر على أرض حجرة القصر معجون ثميك من العنبر والمسك والكافور الممزوج بماء الورد . ثم أمر أيضاً بصنع أوانى أشبه بزقاق اللبن ، ولها خيوط من الحرير الرقيق . وحملت اعتماد والنسوة هذه الأوانى على أيديهن ، وسرن فى « الوحلة » الذكية الرائحة ، إشباعاً لرغباتهن .

وبينما تجرى الحياة رخية هنية فى أشبيلية ، تطورت طليطلة حتى صارت مدرسة الغرب ، والطريق الذى انتقلت عنه كنوز المعرفة التى وصلت إليها من الشرق . ومثلما جلبت التراجم المنظمة علوم الغرب القديمة إلى العرب ، فإن الغرب عرف أيضاً علوم الشرق عن طريق الترجمات فى العصور الوسطى . فنلاحظ فى القرن الحادى عشر ، أن قسطنطين القرطاجنى يقضى ثلاثين عاماً متنقلا فى ربوع شمال إفريقيا والشرق ، تحدوه الرغبة فى دراسة علوم الطب ، ثم يستقر بعد ذلك فى سالرنو ليدرس ما جمع ، وأخيراً يعتزل فى دير مونت كاسينو ، ليترجم المؤلفات العربية إلى اللاتينية .

كذلك درس أبلارد الباثى أثناء رحلاته فى آسيا ومصر وأسبانيا المؤلفات الرياضية والفلكية العربية ، وترجمها إلى اللاتينية بعد عودته إلى وطنه انجلترا . وأسس أسقف طليطلة مدرسة للترجمة ليكمل النقص فى علم الغربيين بالفلسفة . فنقلت إلى اللاتينية فى مدى عشرين عاما ، كتب فلاسفة العرب القدماء ، تحت إشراف « الأرشدياقن » (هكذا كان عرب أسبانيا يسمون فى لغتهم الأسقف

الكبير ، الذي يسمى اليوم في اللغة الانجليزية Archedeacon)، المسمى دومينيكو غنصاليه (Gundislavus) وبمعاونة يوحنا بن داود اليهودي (Hispalensis). وممن اشتهر بالترجمة في القرن الثالث عشر أفلاطون التيفولي ، وجيرار القرموني ، وفردريك الثاني الفلكي ، وميخائيل سكوتس وهرمانوس الألماني أو التيوتوني .

ولم يؤثر على التبادل الثقافي بين الديانتين العالميتين الكبيرتين أو في الصلة القائمة بينهما ، النزاع الذي نشب بين أهالي أسبانيا المسيحيين وسادتهم المترفين المتنافرين ، وكذلك ارتداد المغاربة تدريجيا إلى الجنوب حتى انكمشت امبراطوريتهم آخر الأمر في مملكة غرناطة الصغيرة . ذلك أن كل فتح مسيحي جديد لمراكز الدراسة الإسلامية ، وضع أيدي المسيحيين على كنوز جديدة من الكتب ، لم تترك على رفوفها دون قراءة ، لأن الملوك المسيحيين شجعوا في حماسة دراسة هذه الكتب .

وإذا كان الغرب قد تلقى علوم المسلمين وأضاف إليها ونقحها كذلك ، فإن هناك مظهراً واحداً من مظاهر الحضارة الإسلامية ، وهو الفن ترك مهملا نسبياً دون أن يكشف عنه أحد . ومهما يكن من أعمال الفن العربي التي تهدمت أو ما بقي منها في حالة خربة محزنة ، فإن هذه الآثار عامة تعد أحسن دليل وأصدقه عن تطور الفكر العربي واتساع أفقه ، وتغير ميوله أثناء القرون التسعة من سيادة الإسلام .

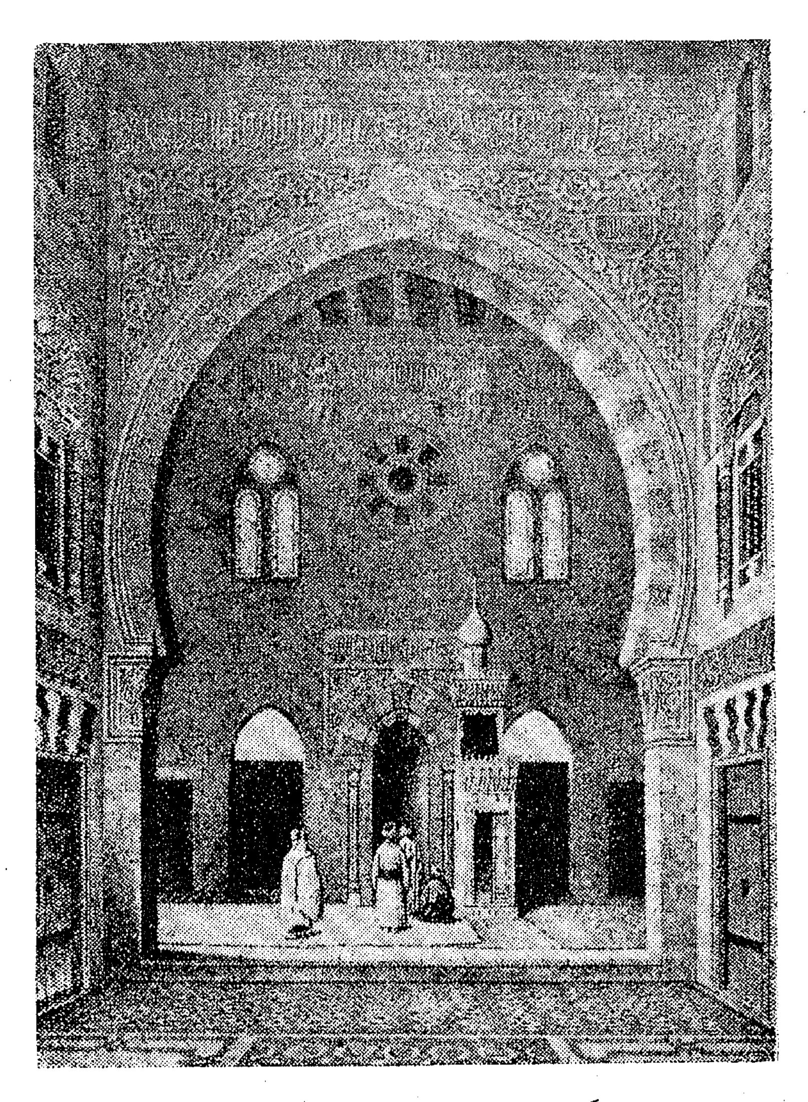
ومن المحتمل أن العرب — باستثناء اليمن فقط — لم يملكوا أي مظهر من مظاهر الفن عندما ظهروا على مسرح التاريخ العالمي . ومما يدل على ذلك الكعبة ببنائها البسيط ، وكذلك عدم وجود أي مظهر من مظاهر النحت أو التصوير عندهم . ولم تطلب مظاهر العبادة في صدر الإسلام أية مظاهر فنية ، فأول مسجد إسلامي في المدينة كان عبارة عن فناء مربع ، أشبه بفناء أي بيت من

بيوت أصحاب اليسار ، وعدا إعداده بحيث يستقبل المصلين فليست به أية حليات أو تنسيقات خاصه . ولكن أهم مظهرين سادا المسجد ، هما شكل الفناء ودقة تحديد القبلة ، إذ ظلا مدى قرن من الزمان المميزات الوحيدة لفن المساجد .

ومما يدعو إلى الدهشة أن العرب الذين افتقروا إلى الذوق الفنى زمن النبى ، أبدوا حرصهم أثناء الفتوح على الإحتفاظ بالآثار الفنية القديمة وعدم المساس بها ، كما أظهروا استعدادهم لمشاركة المسيحيين فى بيوتهم الدينية الجميلة ، وأداء صلاتهم فيها .

ويجب ألا ننسى أن حروب المسلمين كانت حربا دينية ، وأن هدفهم هو نصرة الإسلام . ومن ثم رسخ فى أذهانهم الرأى القائل بأن مكان العبادة هو بيت الله ، وأن الواجب يقضى أن يعمر ويعد إعداداً رائعاً . وفى هذا الاعتقاد تكمن نواة الفن الدينى الاسلامى .

وبدت أشكال الفن المعمارى الزخرفى ، التى طالعت أنظار العرب يوما بعد يوم فى كنائس المسيحيين ، فى دمشق وبيت المقدس وقرطبة القاصية أيضا ، بدت كل هذه فى نظر العرب ذروة الفن الإنسانى بأجمعه . ولذا لم يكن غريبا أو أمراً غير متوقعاً أن يبدأ الفن الإسلامى أولى خطواته متأثراً بالنماذج التى أمامه فى المدائن ودمشق وقرطبة ، ثم يتطور بعد ذلك متخذا سبلا شتى . غير أن الأمر الهام هو التأثير العظيم الذى أحدثه الإسلام نفسه فى الفن الإسلامى . فإذا كان العمال المسلمون لم يستطيعوا ابتكار شىء من عندياتهم ، وأنهم اعتمدوا فى ميدان الفن اعتمادا كليا على مواهب الشعوب ذات الديانات غير الإسلامية ، فإنهم نجحوا برغم ذلك فى المزج بين الفن الشرقى والفن الغربى فى وحدة جديدة ، وأعطوا ذلك المزيج ، الذى جاء نتاجا للترابط والاختيار طابعاً خاصاً بهم . ومن ثم



شكل ١٧ — جامع قايت باى ، من الداخل

فإن هذا الفن الجديد يدين بميلاده إلى ذوق العرب القائمين على البناء ، وإن كان من الصعب تقدير قيمة نصيبهم فى ذلك العمل ، نظرا لما قدمه صناع الفرس والبيزنطين والقبط .

ويعتبر جامع عمرو بمصر أول دليل على الحقيقة السالفة ، إذ أن عمرو بن العاص ، أول والى لمصر ، بنى هذا المسجد قبل تحويل كنيسة القديس يوحنا بأجمعها فى دمشق إلى مسجد ، وكذلك قبل تشييد مسجد قبة الصخرة فى بيت المقدس . وجاء جامع عمرو فى جنوب مصر القديمة دليلا مازالت تكشف بقاياه القديمة عن اشتباك مؤثرات عديدة من جهات بعيدة . فقد جمعت الأعمدة من المبانى الفارسية واليونانية القديمة ، ودون أى اعتبار للتناسق أو الحجم بينها استخدمت فى إقامة صحن مسقوف يستند على حنايا أشبه بمسجد المدينة . أما تخطيط المسجد فكان عبارة عن فناء مربع ، يتكون جانبه الأيمن والأيسر من ثلاث بلاطات ولمدخله بلاطة واحدة ، على حين يتكون الصحن الرئيسى ، الذى يتجه جداره الأساسى نحو القبلة ، من ستة صفوف من الأعمدة . واتخذت العقود فى المسجد مميزات شتى ، أقدمها شبيه بالكنائس المسيحية البازيليكية الطراز ، وإن كان بالبناء القديم نماذج من العقود المدببة الشكل ، أما مادة البناء التى استخدمت فى الأصل فهى الطوب .

ومن البديهى أنه لم يكن فى استطاعة مهندس عربى فى القرن الأول الهجرى تشييد مثل هذا البناء ، مما يجعلنا نصدق الرواية القائلة بأن الذى قام بهذا العمل مهندس مسيحى اعتنق الإسلام . ومهما يكن من ذلك فإن الأثر العربى واضح فى هذا البناء ، ذلك أن الأعمدة أخذت طابعاً جديدا فى العمارة العربية ، حيث أصبحت أهميتها الزخرفية تقدم على قيمتها البنائية ، وصار ترتيب الأعمدة وعددها يعطى البناء هيئته الخاصة . ذلك أن الأعمدة استخدمت فى الكنائس المسيحية لتخفيف ثقل الفواصل بين الأروقة الطويلة ، على حين لم يدرك العرب هذه الحقيقة الخاصة بالأعمدة ، واستخدموها على النمط القديم سبيلا للتعبير عن الضخامة والكمال . فزاد عدد الأعمدة فى مسجد عمرو عن عدد أيام السنة ، ثم

إن البلاطات لم تنظم على هيئة زوايا قائمة ، وإنما غدت موازية للحائط الموجود به القبلة . وحل محل الرواق الطويل فى البازليك (الكنيسة المسيحية) عدد كبير من أروقة قصيرة ، بلغت فى بعض الأحيان ست وعشرين رواقا . وكذلك اختلفت منظر البازيليكيا تمام الاختلاف عن المسجد ، فبينما يوجه الطراز البيزنطى النظر مباشرة إلى الحنية الهائلة فى نهاية الصحن الطويل ، كانت أعمدة المسجد تخفى المحراب ، وهو عنصر معمارى دخل الإسلام فى القرن الثانى الهجرى ، (أنظر شكل ٧ ؛ داخل جامع القيروان ، وترى المحراب على اليمين) .

على أن ذوق العرب الفنى اقترب من الذوق البيزنطى فى غرب الدولة الإسلامية . ويمكن أن نتلمس الأدلة على ذلك فى المبانى الدينية بصفة خاصة ، فى الجزائر ومراكش وأسبانيا . وأول نموذج لذلك ، هو مسجد القيروان العظيم ، المسمى جامع سيدى عقبة ، الذى أسسه حول منتصف القرن الأول الهجرى ، عقبة بن نافع ، فاتح أفريقيا الشهير . ولكن حسان هدم هذا المسجد وأعاد بناءه (٧٠٣ م) ، وذلك بعد تحطيم قرطاجنه . واحتفظ هذا المسجد بقدر كبير من طابعه الأصلى برغم توالى تجديده وإصلاحه على مر القرون .

ويرجع التخطيط العام للمسجد إلى القرن الأول الهجرى ، حيث يشبه جامع عمرو فى غابته من الأعمدة . وتنقسم هذه المساحة التى تشغلها الأعمدة إلى ثمانية أروقة ، يقع وسطها صحن مركزى عمودى على المحراب ، ويتوج كل ركن من أركانه قبة ، ومن ثم أخذ شكل المسجد حرف « T » ، وزادت فيه وضوحا ازدواج الأعمدة ، على نحو ما ساد الكنائس المسيحية القديمة ، مثل كنيسة القديس بولس (خارج أسوار روما) ، وكنيسة المسيح فى بيت لحم . ولكن برغم هذا التشابه الشديد بين المسجد وطرز المسيحيين القديمة ، فإن المظهر العام للمسجد

أصلى مبتكر . فالبناء بأعمدته المحيطة به يعتبر من تراث مسجد المدينة ، على حين تذكرنا ضخامة مئذنته ذات الطوابق الثلاث والمربعة الجوانب ، وقيامها على جانب الفناء المقابل لمدخل المسجد ، تذكرنا إلى الآن بهيئتها الضخمة بعصر الفتوح الإسلامية . أما الجدران المحيطة بذلك البناء الهائل وأبوابها المتوجة بالقباب ، وأبراجها المربعة البارزة والدعائم التى تحملها ، يبدو كل ذلك تقليدا للمصور الملكية فى فارس .

ونشاهد لأول مرة فى مسجد سيدى عقبة زخرفة المحراب فى أولى مراحله ، وإن كان المحراب القديم يرى خلوا من الزخرفة . فبالقرب من المحراب القديم يوجد محراب آخر أصغر منه ، يرجع إلى عهد متأخر حول سنة ٨٣٧ م ، ويمتد فى حائط مغطى بالخزف ، ولهذا المحراب عقد دائرى مغطى بالرخام ، وعلى جانبيه عمودان لهما تاجان من الطراز البيزنطى ، وتسود الزخرفة الخارجية للمحراب الطابع البيزنطى كذلك . ولكن فى نصف المحراب الأعلى نرى إزارا فيه كتابة زخرفية ، تكشف لنا عن هيام العربى بالكتابة الجميلة ، ذلك الهيام الذى مازال قائما إلى اليوم ، وبمرور الزمن أصبحت الكتابة عنصرا من عناصر الزخرفة . ثم إن المنبر أيضا المصنوع من الخشب ، والذى يعد أحد كنوز المسجد الثمينة ، يدل عما يحويه من زخرفة هندسية مخرمة الشكل على التأثير البيزنطى . وإن كانت هذه الزخارف نفسها تكشف عن بداية مجهودات خاصة للتخلص من قيود الفن البيزنطى .

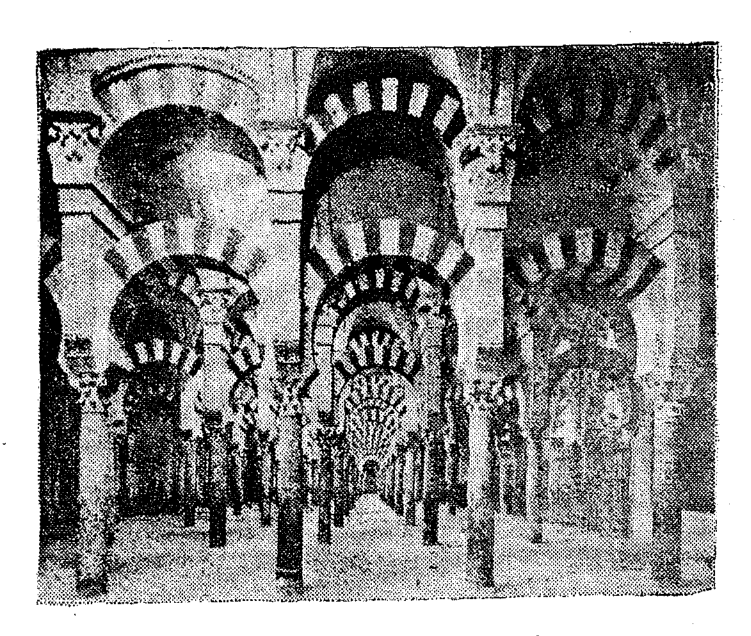
على أن دراسة المنبر تنقلنا إلى آخر القرن التاسع ، ولذا يجب أن نعود إلى القرن الثامن لنقف على الفن الإسلامى فى مهد آخر من مهاده الكبرى وهو الأندلس .

إلى جانب الأعمال الفنية التى عرفها العرب الفاتحون فى الجزيرة والشام والمغرب ،

والتى اتخذوها نماذج لهم ، ظهر على المسرح الأسبانى مؤثر جديد ، هو الفن القوطى ، الذى بلغ أعلى درجاته زمن الفتح العربى . ولا يمكن أيضاً أن نغفل الفن عند البربر ، وإن كان من الصعب إثبات ذلك . على أن هـذا الفن الذى ساهمت فيه عوامل كثيرة قد تطور تطوراً خاصا به على الأطراف الغربية للدولة الإسـلامية .

وأول نموذج لهذا الفن هو مسجد قرطبة الجامع ، الذى تمثلت فيه فعلا معظم المؤثرات المختلفة . فأخذ هذا المسجد من مخلفات العالم القديم مئات الأعمدة التى تزينه ، ومن بيزنطة الزخرفة الخارجية ، على حين فرض الفن الأسبانى القوطى طابعه على الأبنية المعمارية . ولـكن هذا البناء لم يصل إلى صورته النهائية إلا بعد خطوات تمت خلال قرنين من الزمان ، حيث كانت الهمة فى البناء تزداد على مر الزمن ، ثم توقفت بعد ذلك . وجاء المسجد بعد الانتهـاء منه آية فى غاية الجمال والروعة ، وعملا فريدا لا يبزه شيء ، إذ تعلو غابة الأعمدة الـكثيرة عقود على هيئة حـدوة الحصان ، وفوقها تقوم دعائم تحمل الطبانات التى يرتفع عليها السقف . وبين كل طبان وطبان تمتد أقواس دائرية تعلوها عقود على هيئة حدوة الحصان ، ليس فيها من عناصر الزينة غير المواترة فى الألوان بين الأبيض والأحمر . ثم تعاون الماضى مع الحاضر ، أى المسيحية مع الإسلام على خلق هذا البناء ، فجلبت معظم الدعائم من المعابد الرومانية الخربة ، أما التيجان التى تشبه الطرز الـكورنثية ، والأقواس التى على هيأة حدوة الحصان ، فـكانت رفيقا صاحب العرب فى سفرهم من فارس إلى الغرب . أما المحراب ، وهو درة ذلك المسجد ، فيدين بزخرفته الرائعة إلى فنانين من بيزنطة ، وأشرف أبو جعفر الصقلبى على معظم البناء . على أن الطابع العام للمسجد ، فيما عدا ذلك ، طابع عربى محض .

ويتجلى فى هـذه العمارة نفس الروح التقليدية التى تطالعنـا فى الشعر العربى



شكل ١٨ — جامع قرطبة من الداخل

القديم ، المعروف بالقصيدة . فكما أن القصيدة تتألف من أبيات يلي بعضها بعضا دون وحدة مركزية ، وإنما تصغى الأذن فى اهتمام لعباراتها العذبة وقوافيها ، فإن العقل كذلك يضل فى التفاصيل الصغيرة التى تدق شيئا فشيئا وهو يشاهد مسجد قرطبة ، حيث يسبح فيه الخيال وتتجدد الأفكار . فالمسجد عامة شيء هائل ، لا يمكن تصوره ، ولكن لا يسترسل فيه العقل وراء المنظر العام ، وإنما يتأثر بما فيه من مظاهر دينية عميقة . فإذا يمم المسلم وجهه شطر المحراب ، يرى الزخارف العربية التى تغطيه ، وكلما أطال فيها النظر كلما انصرف ذهنه إلى تفاصيل وراء تفاصيل ، حتى يظهر له فجأة وسط هذا الخليط آية قرآنية ، ذات معنى سامى غالبا . وظل هذا الطابع هو مثل العربى الأعلى للجمال ، الذى صاحب الدولة الإسلامية

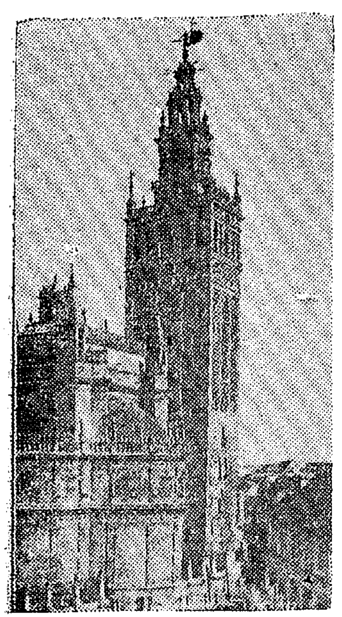
فى كل مكان ، ووصل إلى أوجه على مر القرون ، ولا سيما فى الجهات التى التقى فيها بتيارات أجنبية ، فى غرب الدولة .

ومنذ القرن التاسع الميلادى أخذ الفن يكتسب طابعا آخر فى بقاع الدولة المختلفة . فكان تأثير الأطلال القديمة والأهالى فى الهند وفارس عظيما حتى إن الفن الإسلامى تأثر هناك بطابع هاتين الحضارتين . أما فى وسط الدولة ، أى فى الشام ومصر ، فقد تكاتفت المؤثرات المحلية مع سلاجقة الشرق والمغاربة على خلق طراز مصرى — شامى . وفى المغرب وأسبانيا تطور الفن العربى والفن البربرى الذى يشبه كل منهما الآخر ، دون أن يتأثرا إلا قليلا بما حاطها من مظاهر ، ونتج عنهما الطراز المعروف بالفن المغربى .

وتعتبر الأندلس المركز الحقيقى لهذا الطراز من الفن وموطنه ، ومنها انتقل إلى أرض المغرب . على أن كل المبانى الدينية التى شيدت فى عصر متأخر زالت من أسبانيا ، عدا مسجد قرطبة . ولذا يجب أن ننتقل إلى مكان خارج أسبانيا لنقف على ازدهار الفن المغربى وثماره اليانعة . وإنا نجد نماذج كثيرة لهذا الفن فى مكان مغمور بالجانب الشرقى لمراكش فى مدينة تلمسان الصغيرة ، والجهات المجاورة لها . ففى غمار الحروب المتصلة ، وأثناء حكم أمراء من أصول مختلفة ، وخلال عهد المرابطين والموحدين وبنى عبد الواد وبنى مرين وبنى زيان ، الذين حارب بعضهم بعضا ، وتعاقب الواحد منهم وراء الآخر ، فى أثناء ذلك كله قامت العمائر التى تكشف عما تمتع به المغاربة من ملكات فنية منذ القرن الثانى عشر إلى الخامس عشر .

ومن ذلك أنه بنى فى عهد المرابطين الجامع الكبير (١١٣٥ — ١١٣٨ م) الذى مازال إلى اليوم أكبر جوامع تلمسان • ويبين هذا الجامع التقدم الذى أحرزه المغاربة فى ميدان العمارة ، إذ حلت الدعائم المربعة الجوانب محل الأعمدة المستديرة، والعقود ذات الفصوص محل عقود حدوة الفرس • ويتم الانتقال من البناء المربع الشكل إلى القبتين اللتين تعلو إحداهما الأخرى بواسطة أكتاف ذات مقرنصات •

أما مسجد سيدى أبى الحسن الصغير ، وهو اليوم متحف تلمسان ، الذى أسسه بنو عبد الواد، فيكشف لنا عن فن الزخرفة المغربى فى أعلى درجاته، فى نهاية القرن الثالث عشر • إذ اختفى فيه الفن البيزنطى ، ولا يرى به أيضا أى أثر لفن أجنبى آخر • فتحولت الزخارف النباتية ، وهى فى الأصل من ورق الأشجار وفروع النخيل إلى أشكال هندسية ذات مسحة تقليدية • إذ أن الكتابة المتشابكة على هيئة الأغصان كانت عنصرا جديدا له طابعه الخاص • ثم ترى طبقات تعلو بعضها بعضاً من هذه النماذج المحفورة ، والتى تشبه « الدنتلا » دون خلط أو اضطراب . وبينما يحتفظ كل نموذج بمميزاته الخاصة ، تبدو تلك الكتابة واضحة تحت هذه النماذج. وهنا بلغ الخط المعروف ، بالكوفى ذروة بهائه وجماله، فأحيانا يكون ذلك الخط نواة تحيط بها زخارف نباتية مجدولة (أرابسك) ، وأحيانا تعلوه سيقان نباتية، وأحيانا أخرى يستعمل على هيئة أزر زخرفية ذات وحدات متكررة •



شـكل — ١٩ الجرالدا بأشبيلية

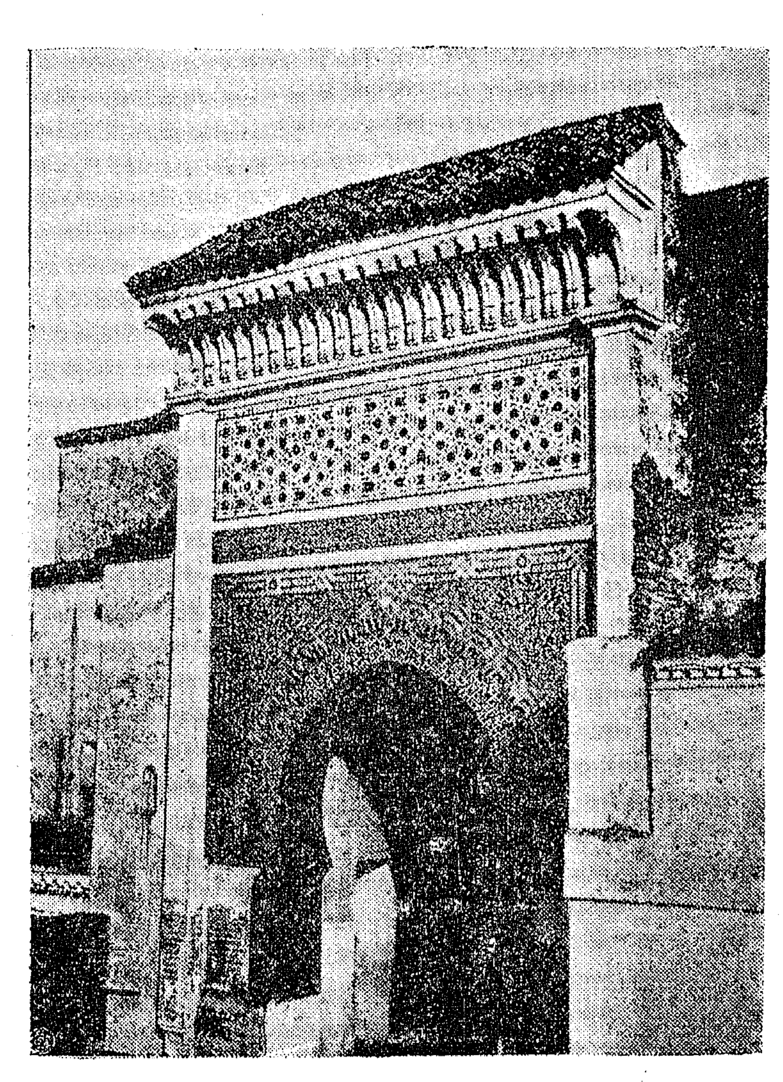
لقـــد وجد الفن الإسلامى فى تـكوين الزخارف من النباتات والـكتابات والأشـكال الهندسية تعبيرا جديدا عن روحه الحقيقية ، وعن ميله إلى مزج الأشياء المادية بالمعنوية . فحول المسلمون النبات إلى عنصر هندسى ، والـكتابة إلى زخرفة نباتية ، واستعانوا فى ذلك بأدق صور الخيال وأبرع العمليات الحسابية حتى توسلوا إلى خلق ذلك اللون من زخرفة السطوح ، التى لقيت إعجابا عظيما من أهل المغرب ومن أهل أسبانيا ، وقلدوها فى طراز المدجنين .

ولـكن هذا الفن لم يتخط الحد الذى وصل إليـــه ، لأن ذلك اللون متأصل فى النفس الشرقية وحدها ومقصور عليها .

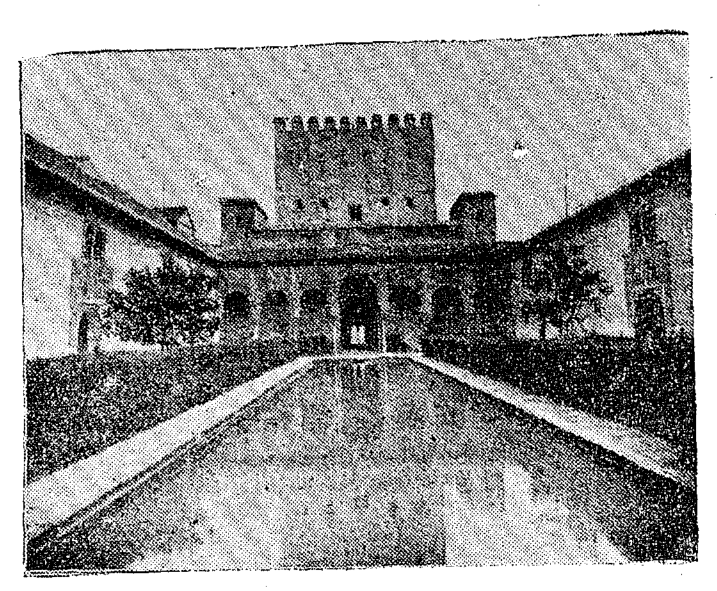
ويتضح تأثير الحساب على الفن الإسلامى فى كل الآثار التى تمخضت عنها ملـكات المسلمين الفنية . فنلاحظ فى المحراب مثلا ، الذى نالت زخارفه قسطا عظيما من العناية منذ زمن مبكر ، نلاحظ كيف تطور خطاه المتوازيان فى عقود الواجهة الخارجية إلى أن أصبحا محيطين لدائرتين يقع مركز أحدهما فوق الآخر . كذلك نال جزء آخر من المسجد وهو المئذنة عناية خاصة ، إذ أعمل الذهن الإسلامى فيها خياله ، وأجهد نفسه فى الحساب حتى جعل منها طابعا مميزا للفن المغربى . والمئذنة فى الأصل محاكاة لمنارة الأسكندرية ، ثم احتفظت المآذن المغربية تقريبا فى كل مكان بطابعها المربع الشـكل . ولا يزال يرى فى أعلاها ذلك البرج الصغير ، وهو الشـكل المخروطى القائم على قاعدة المئذنة المربعة ، ويبدو كأنه ذكرى لبرج بابل المدرج . ويتجلى ذلك بشـكل واضح فى مآذن المسجد الجامع بسامرا ، وجامع

أحمد بن طولون فى القاهرة . وكانت الواجهات المسطحة للمآذن هى الدافع للمسلمين إلى العناية بالزخرفة الخارجية ، إذ غطيت جدران البرج بشبكة زخرفية من الآجر ، عليها عقود صماء قائمة على أعمدة صغيرة منسقة تعلو الشرفات ، وذلك على حين كسيت بطانة البرج الأعلى بخزف متعدد الألوان .

وإذا كانت هناك عوامل عديدة منعت المغاربة من الابتكار فى الزخارف الخارجية، فإنهم استطاعوا بحسن انتقاء الأشياء التى وقعت فى أيديهم وتنسيقها، إقامة أبراج مآذن هائلة فى مدينة المنصورية ، وأخرى ذات بهاء فاخر فى مراكش . ويشتهر كل من برج الحسن فى الرباط وبرج الخرالدا فى اشبيلية بالرشاقة الفريدة والبهاء . وظلت المآذن مدى عدة قرون الجزء الوحيد الذى ينقل إلى خارج المسجد شيئا عن عظمته الفنية فى الداخل . ولم تصبح الأبواب الخارجية العظيمة الزخرفة جزءا من الجمال الفنى للمسجد إلا فى القرن الرابع عشر . ومن أمثلة ذلك الباب الخارجى لمسجد سيدى أبو مدين ، الذى يقع جنوب غربى تلمسان على سفح أحد الجبال ، إذ تدل فخامة هذا الباب الذى أقيم فى عصر بنى مرين ، على أنه قامت عدة محاولات قبل أن يصل الفن إلى هذا المستوى . فالباب يقوم على قوس أشبه بحدوة الفرس وتحيط به زخارف نباتية (أرابسك) وخطية وهندسية ، وحوامل صغيرة جميلة ، ثم يؤدى الباب بدوره إلى قاعة فاخرة الزينة . وبعد أن يصعد الإنسان إحدى عشرة درجة يصل إلى مصراعى الباب الهائل ، المصنوعتان من خشب الأرز . ثم إن معدن البرنز الذى طعم به ذلك الباب يدل على مدى الارتباط الفنى الذى ابتكره الفنانون فى ذلك العصر . ومن ثم إذا كان الفن المغربى قد ظهر متأخراً ، فإنه يعطى أحسن النماذج عن عظمة الزخارف



شكل ٢٠ — واجهة باب سيدى أبو مدين بالقرب من تلمسان



شكل ٢١ — بهو الآس بالحمراء

الخارجية والداخلية. ويتجلى هذا الفن الجديد فى أعمال الفسيفساء الملونة، وتناسق نماذجها الرائعة . غير أن الانغماس فى المظاهر العامة ، أدى إلى إهمال الحليات الدقيقة . فالناظر إلى داخل مسجد سيدى أبو مدين ، ومشاهدة التفاوت بين الزخارف فيه وبين جدرانه المبطنة بالكلس ، يلمس أن ذروة الذوق الفنى قد مضى أوانها . ولكن الابتكارات الفنية لم تقف بعد ، إذ استمرت بضع قرون أخرى ، حيث تزودنا أسبانيا بنماذج من هذا الفن الأخير فى بناء المساجد .

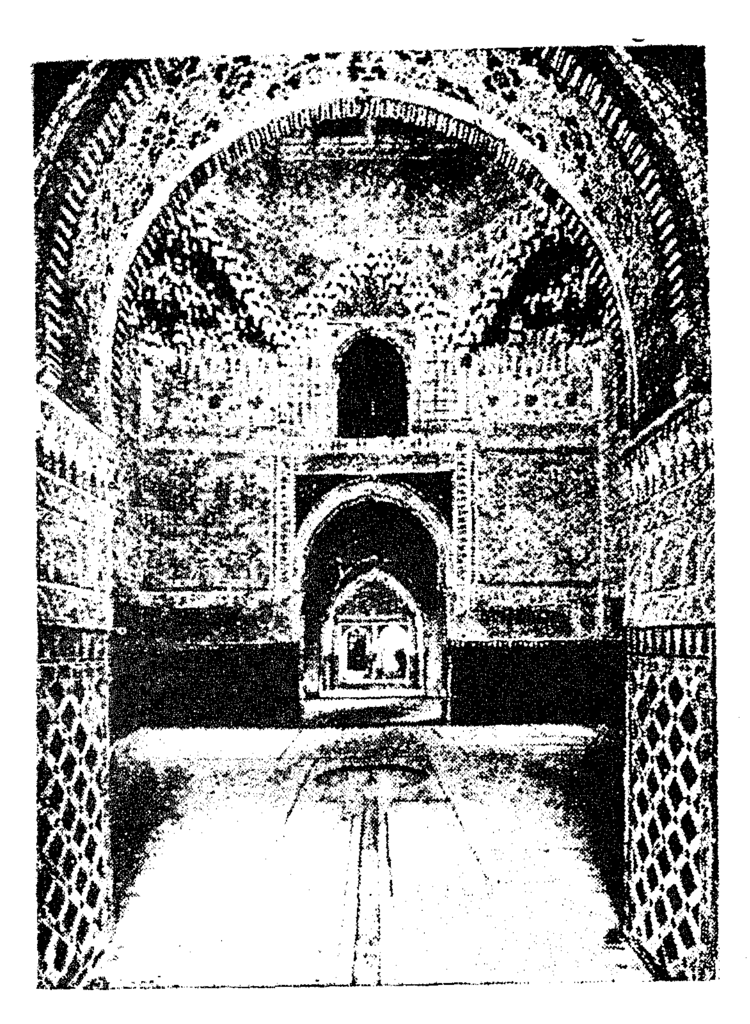
والآن ننتقل من المغرب إلى مصر، مركز الدولة الإسلامية ، لندرس فى آثارها الباقية تطور عمارة المساجد ونقارنها بما فى المغرب . وسنقتصر على ثلاثة آثار منها لنرى خصائص الفن المصرى ومداه .

نجد جامع ابن طولون الذى بنى فى نهاية القرن التاسع الميلادى (٨٧٨ م)

يختلف عن جامع قرطبة ، ويكشف لنا أيضاً عن اختلاف الطراز المصرى عن الفن المغربى فى تلك الأيام الأولى . أما جامع السلطان حسن فيشبه جامع سيدى أبو مدين ، على حين يمثل مسجد قايت باى ، الذى بنى فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر آخر مراحل فن بناء المساجد فى مصر . ويتجلى فى جامع ابن طولون ضعف التأثير البيزنطى وظهور طرز العراق ، فغدت العقود المدببة تسود كل البناء ، وتعلو الدعائم والنوافذ والمحراب . أما الزخارف النباتية التى تمتد على أفاريز الدعائم والعقود ، وكذلك الزخارف الخطية المحفورة فى خشب الجميز ، إن هذه الزخارف تضم نواة الحليات السطحية الشائعة فى كل العمائر الإسلامية . ثم إن العقود المدببة والأعمدة تدل على العناية التى بذلت فى مصر بفن بناء المساجد ، وهو الأمر الذى افتقرت إليه العمارة فى المغرب .

وإذا كان طراز العراق الذى يتمثل فى « تاكى كسرى » (أنظر صورة رقم ٥) هو الطابع الغالب على جامع ابن طولون ، فإن التأثيرات المحلية هى السبب فى فتح الكوات فى الحوائط لتخفيف مسطحاتها ، كما يشاهد فى الأزهر وتحولها أخيرا إلى عقود أشبه بالحدوة . ولا بد أيضاً أن مصر ، الوطن القديم للعمارة وتنسيقها الرائع ، قد أيقظت فى سادتها إدراك قيمة الجمال فى البناء عامة . فظهر فى مصر منذ عهد مبكر عن المغرب ، وفى عهد الفاطميين أيضاً محاولات لزخرفة المساجد من الخارج . فنجد الباب الرئيسى والنوافذ داخل كوات ، وهذه الكوات يحيط بها زخارف وأشكال هندسية ، غدت عنصرا من عناصر زينة الواجهات ، والتى استخدمت فيما بعد فى جامع الحاكم بالقاهرة ، والذى بنى سنة ٩٩٠ م .

وفى عهد الأيوبيين (١١٧١ — ١٢٥٠ م) الذين اتحدت سوريا وفلسطين أيضاً تحت لوائهم ، تغيرت هيئة المسجد القديم تماما . ويلاحظ هذا التغير أيضاً فى طرز بناء الأضرحة (انظر شكل ١٤) الذى أخذ عن بيوت



شكل ٢٢ — قاعة الأختين بالحمراء

النار الفارسية (الدشما) والتي تتميز بسقف مقبي . وإذا كانت القبة ، التي تطورت من شكل بيضاوى إلى عقد مدبب مأخوذة عن الشرق ، فإن مهمة خلق حالة انتقالية مناسبة من البناء الرئيس المربع الشكل إلى قاعدة القبة قد دفعت

البنائين إلى إدخال تجديدات ملائمة . فأقاموا على القاعدة المربعة ، قاعدة مثمنة ، وعلى الأخيرة قاعدة ذات ستة عشر ضلعا ، وعلى تلك أقيمت القبة ، وغدا شكلها النهائى أشبه بالمقرنصات أو الدلايات .

وفى نفس الوقت استخدمت المقرنصات حلية للمحراب . وهناك عدة آراء ، بعضها يبين أن الدلايات نشأت محاكاة لمظاهر الطبيعة ، وأخرى ترى أنها قامت على أسس حسابية . غير أن ميل العرب إلى حل مشاكل الزخرفة وفق أسس هندسية تقوى النظرية الثانية ، ولاسيما أنه يزيد تلك النظرية قوة شيوع المقرنصات فى جميع نواحى الدولة الإسلامية . ومهما كان أصل المقرنصات فإنها جاءت مكسبا عظيما ناله الفن الإسلامى . وظلت هذه المقرنصات مع زخارف الأرابسك نماذج صالحه فى كل زمان ، وإن كانت لم تلق أى تقدير أو قبول خارج نطاق الحضارة الإسلامية .

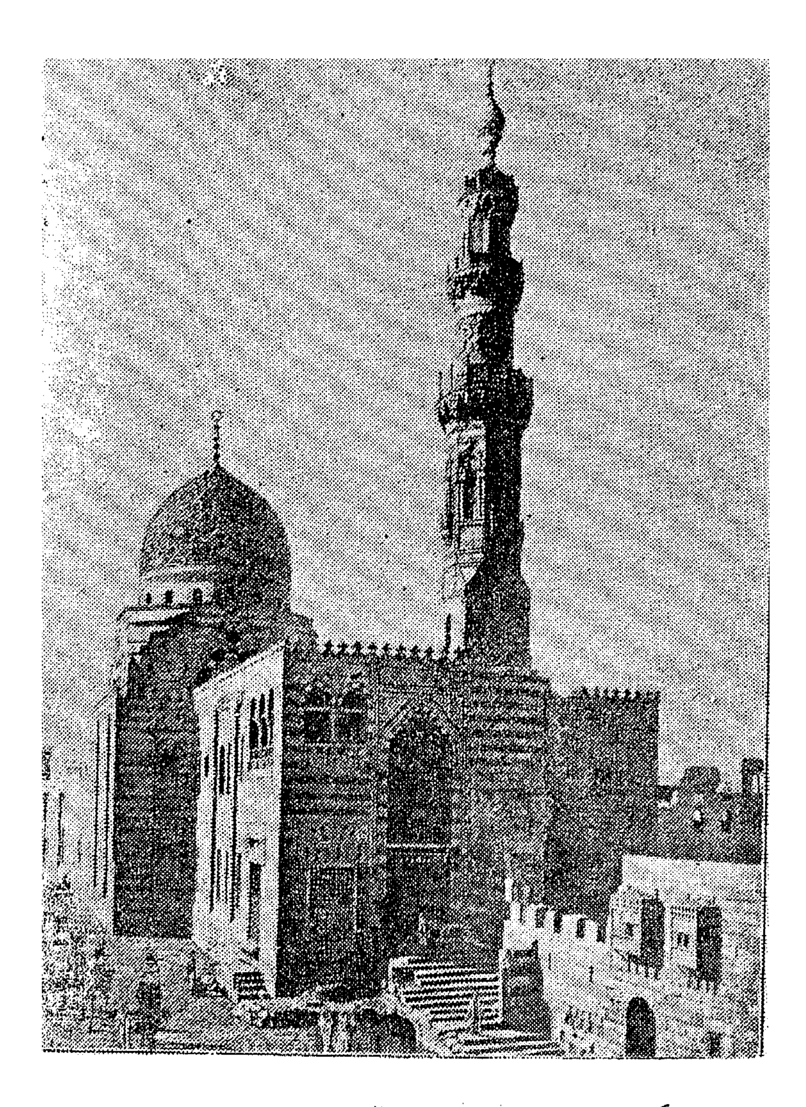
وبقيام دولة المماليك ، الذين خلفوا الأيوبيين ، بزغ فى مصر فجر عهد جديد من القوة والأزدهار . فاكتسب المسجد بضم الضريح إليه عاملا دفع به خطوة إلى الأمام فى طريق التطور . ذلك أن إدخال القبة فى بناء المسجد خلق حاجة إلى الإرتفاع بالبناء، والإكثار من التجاويف والحنيات. ثم أدت أبهة العصر وجلال السلاطين إلى إقامة زخارف خارجية فاخرة ، تجلت فى الواجهة والمدخل والمئذنة . وكانت أعمال السلاجقة فى آسيا الصغرى نماذج تحتذى فى هذا الميدان ، وأحسن نموذج لهذا الطراز ، المسمى طراز المماليك البحرية هو جامع السلطان حسن .

ويحلى مسجد السلطان حسن من الداخل عقود مدببة تغطيها المقرنصات ، وله واجهة مقسمة إلى طبقات تجعلها تبدو للناظر أعلا مما هى عليه . ثم يعلوه

مئذنتان ، شديدتى الارتفاع (انظر شكل ١٥) . غير أن داخل المسجد يفوق المظهر الخارجى من حيث قوة التأثير ، إذ يجد الداخل بوابه تؤدى إلى دهليز يتوجه قبة تحليها المقرنصات ، ثم إلى ممر طويل ينتهى إلى صحن مربع الشكل ، حوله أربعة أيوانات ، يبدأ كل منها بعقد مدبب رائع المنظر ، ومن هذا الصحن المكشوف يغمر الضوء سائر الإيوانات . وثلاثة من هذه الإيوانات خالية من الزخارف ، على حين يشمل الرابع ، والذى توجد به القبلة ، جميع فنون الزخرفة المعروفة فى ذلك الوقت . فالمحراب مغطى بالرخام المتعدد الألوان ، والجدران مكسية بالفسيفساء ، على حين يعلوها إفريز من الزخارف والنباتية أيضاً . ويكسب هذه الخطوط بهاء تعدد الألوان ، حيث يتشابك فى انسجام فريد اللون الذهبى واللازوردى والأخضر والأحمر والأبيض الأصفر .

ويوجد خلف المحراب بابان عظيمان ، يعتبران قطعتين فنيتين من الصناعة المعدنية ، ويطلان على ضريح السلطان ، الذى يعلوه قبه هائلة . وإن تناسق المسجد فى الداخل والخارج ، وعرض الألوان ، والذوق السليم الذى تتحلى به الزخارف المحفورة على الحجارة والبرنز والخشب والمصيص ، كل ذلك يجعل مسجد السلطان حسن أروع نموذج للطراز الشامى على أرض مصر ، وأجمل عمل إسلامى فى القرن الربع عشر .

وهكذا فى الوقت الذى بلغ فيه المغرب ذروته الفنية ، كما تدل على ذلك الآثار القائمة هناك ، ظل الفن الإسلامى فى مصر يتابع تقدمه قرناً آخر من الزمان حتى بلغ بدوره فى مسجد قايت باى وضريحه أقصى ذروته . فمهما كانت درجة النضوج التى وصل إليها الفن الإسلامى فى أيامه الأولى ، فإن نماذج الفن هنا تمتزج فى روعة لا مثيل لها . فالعقود العظيمة الهائلة الحجم ، ومنظر المحراب خلال هذه العقود ، والحوائط الخلفية بنوافذها وأبوابها التى تعلوها العقود المدببة ، والإفريز العريض



شكل ٢٣ — مسجد قايت باى بالقاهرة

ذى الزخارف الخطية تحت سقف ملون جميل ، تحليه النقوش الغالية الحفر ، كل ذلك يدل على مجهود متزن ، جاء نتيجة عناصر متشابهة جعلت الفن الإسلامي

فى مصر يصل إلى درجة لم يصل إليها فى المغرب . فمسجد قايت باى آية فنية فى البناء المعمارى سواء فى الداخل أو الخارج . ثم إن البهاء يتجلى بصفة خاصة فى الشرفة التى تشغل الطابق الذى يعلو نافذتين حديديتين فى الدور الأرضى . أما القاعة ذات الهواء الطلق ، بعقودها المدببة القائمة على دعائم متناسقة فكانت عبارة عن كتّاب (أى مدرسة أولية) ، على حين يوجد خلف الأبواب الحديدية فى الدور الأرضى السبيل (أى مكان عام للشرب) .

ومثلما أيقظ الإسلام فى نفوس أتباعه الحاجة إلى الحضارة ، وبعث فيهم الشعور بحب الخير ، وشكل حياتهم العامة والخاصة على السواء ، فإن الفن الإسلامى الذى بدأ أصلا فى المسجد ، احتضن كذلك الحاجات الدنيوية لحياة الناس العامة والخاصة . ولكن لسوء الحظ لم يبق إلا القليل ، لا يشفى الغلة ، من المبانى غير الدينية . ويعلن لنا ميلاد هذا الفن المدنى فى أوائل القرن الثامن الميلادى مقياس الروضة ، بجدرانه المحلاة بالكوات والدعائم . ثم إنه يوجد نموذج آخر لهذا الطراز من الفن فى مارستان القاهرة ، الذى يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى . إذ بنى السلطان منصور قلاوون سنة ١٢٨٥ م مستشفى عظيم ، أتمه من بعده إبنه الناصر سنة ١٢٩٣م . وقام حول فنائه المربع الشكل إيوانات ، خصص أحدها لأعضاء المستشفى والأخرى للمرضى . وإن ما تبقى من ذلك البناء ، وهو بابان وقطعة من خشب الأرضية ، يدل دلالة لا سبيل إلى الشك فيها على أن كل فن فى ذلك العصر استخدم لإدخال البهجة والسرور على المرضى أثناء إقامتهم فيه . فكانت الجداول ذات المياه الجارية تتخلل المستشفى ، على نحو ما هو متبع فى قصور الأمراء ، ثم إن الموسيقى عزفت به يوماً بعد آخر ، وذلك على حين يُنادى فيه بآذان الفجر قبل ميعاده بساعتين حتى يبدو الليل قصيرا لأولئك الذين لم يغمض لهم جفن . ثم إنه طبق فى المستشفى كل العلوم الطبية التى تجعل

إقامة المرضى مريحة . فكانت تعالج الأمراض المختلفة فى أقسام خاصة بها ، على حين خصص فيه قسم للمجانين به وسائل الراحة ، ثم إن كل مريض نزل فى الجناح الجنوبى أو الشمالى من المستشفى حسب حالته الصحية . وكان الهواء فى المستشفى يكيف بالطرق الصناعية ليكون باردا أو دافئا ، كما وجهت عناية خاصة بالهواء الطلق لأنه قيل ، إذا احتاج الإنسان إلى الأكل من وقت إلى آخر فإنه يحتاج إلى استنشاق الهواء فى كل وقت .

وإذا كان الفن قد استخدم فى خدمة الإنسانية إلى هذه الدرجة العالية ، فإننا لا يمكن أن ننكر ما رواه العرب عن فخامة القصور الملكية ومحتوياتها . على أنه لم ينج للأسف من يد الحدثان شيء من تلك القصور ، التى أطنب الرواة فى مدحها ، فقد اكتسح معظم هذه المبانى العواصف السياسية ، ليس فى مصر فحسب ، بل وفى المغرب وأسبانيا كذلك . فلم يبق من قصور الأمويين الشهيرة فى قرطبة غير أطلال زهراء عبد الرحمن الناصر ، وكذلك الحال فى قصر الوزير المنصور الذى اكتشف حديثاً فى مدينة الزهراء وقد أعيد إصلاح قصر أشبيلية الذى بناه الموحدون ، وأدخلت عليه تعديلات كثيرة فى زمن مبكر على يد النصارى ، عقب استيلائهم على المدينة .

وما تبقى من ذلك القصر يرجع إلى القرن الرابع عشر ، ويتجلى فيه الفن المغربى فى أعلى درجات تطوره ، ففى أقدم أجزائه ، المسمى « بهو المرايا » يوجد جدار عالى نسبيا ، به زخارف خارجية غنية تطل على فناء صغير . ولكن بهو الآس يختلف عن ذلك ، حيث يدل برج قمارش العتيد ، بجدرانه العريضة على قوة المغاربة الحربية . أما باقى البناء المطل على بركة مستطيلة فيعتبر آخر مظاهر الفن المراكشى ، الذى تخلى إذ ذاك عن ضخامة البناء ، إذ نجد الجدران الدائرية قصيرة بشكل يلفت النظر ، وعلى هذه الجوانب القصيرة بواكى جميلة لا توحى

أعمدتها الرشيقة للناظر من أول مرة بما تحمله من بواكى ثقيلة والجدران التى تعتمد عليها بدورها .

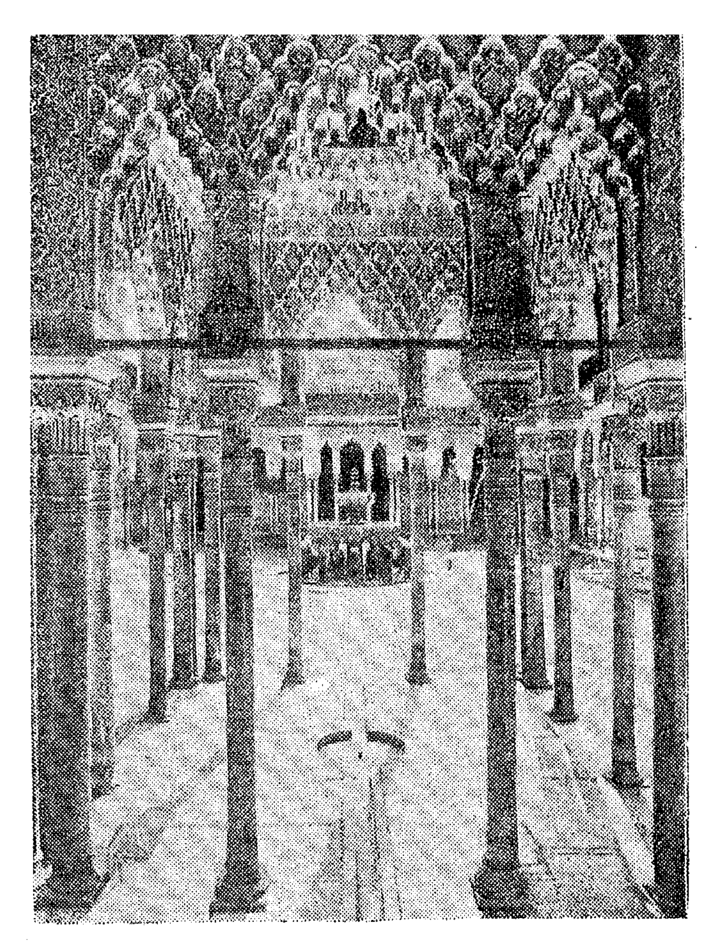
ويؤدى بهو الآس إلى بهو السفراء ، الذى يرينا لأول مرة منظرا داخليا لحجرة استقبال فى أبهى روعتها . إذ أن الألوان المديدة والجدران الثمينة الزخارف والعقود الكبيرة المطلة على النوافذ، والقبة العالية المصنوعة من خشب الشربين ، كل ذلك يجعلنا ننسى أن هذه القاعة الرائعة تقع داخل برج قمارش الهائل . على أن المغاربة لم يقنعوا بالانتصار على المادة ، فهناك فى بهو السباع والقاعات الملحقة به يصل ذوقهم الفنى أقصاه . فالجدران القصيرة تحولت إلى بواكى ، وغدت سطوح الجدران ، بفضل أعمال الحفر فى المصيص بساطا رائعا ، كما صارت تيجان الأعمدة جزءا من الحليات السطحية ، ولا يظهر مطلقا أى أثر لقواطع الدعائم . ولا يذكر الإنسان بأنه محاط بجدران صماء غير منظر الألوان فى ضوء النور الخافت ، على حين يحير لب المرء ويفتنه عبارة « لا غالب إلا الله » تتكرر فى كل مكان ، وغيرها من الزخارف الهندسية والمقرنصات .

وتهدف آخر الثمار الناضجة فى الذوق الفنى المغربى إلى إثارة الإعجاب أكثر مما تبعث على البهجة . ثم إن الزخارف السطحية فيها حلت مكان النحت والتصوير اللذين لا أثر لها هناك ، حيث يرجع ذلك إلى الإسلام . ولكننا نخطىء فى هذا الاعتقاد ، لأن الحفائر الحديثة التى أجريت فى بوادى الشام ، قصير عمرة ، والمشتا ، أظهرت أن الإسلام لم يعرقل حتى فى أيامه الأولى تصوير الكائنات الحية . ثم إنه وجدت فى مصر صور رجال وحيوانات منقوشة فى أعمال الخشب بالمارستان . وكذلك زينت الأبسطة والأوانى فى قصور الفاطميين برسوم الحيوانات من جميع الأشكال .

ولم تتخل فارس فى يوم من الأيام عن تصوير الكائنات الحية، ثم إن الإسلام اليوم لا يحرم التصوير ، ويبيح كذلك عمل تماثيل البرنز . ولم يخل قصر الحمراء من الصور البشرية ، إذ المعروف منذ أقدم الزمن أن الحجرة المجاورة لقاعة الشريعة حوت رسوم تمثل « الملوك العشرة » ومناظر صيد ومبارزة . وقد اكتشف منذ عدة سنوات تحت طلال المصيص على جدران برج النساء صور عدد كبير من الشخصيات العربية .

ومن ثم إذا كان فن النحت والتصوير لم يلعبا دورا كبيرا فى قصر الحمراء أو فى سائر الفنون الإسلامية ، فإن ذلك لا يرجع إلى أوهام دينية ، وإنما لعدم ظهور حاجة إلى هذا اللون من الفن .

ويكشف لنا بهو السباع فى الحمراء ، بغرفه الخاصة بالأمراء عما بلغه المثل الأعلى المغربى ، عن الفن والحياة ، من درجات الحضارة العالية . فكان المثل الأعلى فى الفن السمو بالمادة أما فى الحياة فهو اعتزال الدنيا . ذلك أنه لم يكن من محض الصدف أن تواجه أحسن حجرات الحمراء وأروعها الجانب الشمالى من منحدرات سيرانفادا (جبل الثلج أو جبل شلير) بمناظرها الطبيعية وقممها المغطاة بالثلوج . فلم يوجه العرب اهتماما إلى هذه المناظر الطبيعية المجاورة لهم ، ولم تؤثر عليهم فى تصميم تلك الحجرات ، لأن دخول البيت كان يعنى فى نظرهم الابتعاد من العالم الخارجى . ومن ثم لا يرى من نوافذ الحجرات المحيطة ببهو السباع غير المنظر الخلاب للنافورة وسط غابة من الأعمدة ، على حين يدخل الضوء والهواء من الفناء ، حيث يزيلان الكآبة ، ويخففان من وطأة مقاصير السكن ، كما يغمر الضوء أيضا الدعائم والقرنصات . ولا يعترض هذا المنظر أى جدار أو قبة أو سطح أملس ، كما لا يشوهه أى لون أو نقش ، إذ أن اضطراد الألوان والخطوط ، وخرير المياه فى الجداول ، كل ذلك يهيىء التفكير إلى الهدف الذى مازال المسلم التقى يسمى



شكل ٢٤ — منظر قاعة السباع بالحمراء

إليه ، وهو الخلاص من الدنيا والتقرب إلى الله .

وهكذا يتجلى فى أرق صور الفن الإسلامى ، تلك المثل العليا التى تراءت للعرب منذ ألف سنة من قبل فى وطنهم القديم ، تلك المثل التى حملوها معهم فى تيار الفتوح إلى جهات قاصية ، وهى سقيفة ظليلة ، طلقة الهواء ، مع جداول يسمع

منها المرء خرير المياة ، وحشائش أو واحة نضرة وسط الصحراء . فهذه الألوان والخطوط المضطردة فى قصر الحمراء بعثت فى النفس حالة من الهدوء والسكينة ، كانت كما تروى الروايات لا يمكن التعبير عنها .

على أننا نجد شيئا يدهشنا عندما نقارن بين حجرات الحمراء وحصون الغرب المسيحى وقصوره ، ذلك أن الفن فى الإسلام كان فى خدمة الأمور الدنيوية أكثر منه فى الأمور الدينية . فمسجد الحمراء الصغير يفتقر كثيرا إلى البهاء ، الذى تجلى فى سائر الحجرات الأخرى من القصر . أما فى الغرب فاقتصر الفن على خدمة الكنيسة ، وصارت القصور أماكن موحشة مقفرة إذا ما قورنت بالكنائس . ولكن بالرغم من ذلك لم يكن هناك فى تلك السلسلة القوية من الحصون المسيحية الضئيلة فى العصور الوسطى أى مظاهر للقوة ، وظلت زمنا طويلا لا تثير نحوها شكوك أحد ، أو يدرك إنسان خطورتها . ولذا لم يكن عجبا أن تخضع تلك الحضارة التى عبرت عن أروع صور الحياة للقوى الفتية ، وأن تتراجع أمام تقدم القوى الأسبانية .

وبسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م تراجعت الحضارة المغربية إلى شمال إفريقيا ؛ وانكمشت تدريجيا هناك . ولكن بذور هذه الحضارة لم تمت ، وإنما هى كامنة تحت خلل الرماد فى انتظار بعث جديد .

المراجع

اكتفى المؤلف فى ذكر المراجع بالمصادر التى تعطى للقارىء مادة وافية عن المواضيع التى تناولها بإيجاز فى كتابه . وقسم هذه المراجع إلى ما يلى :

ا — ما يتصل منها بتاريخ الحضارة الإسلامية عامة ، وأشار بالرجوع إلى ما يأتى منها :

(١) مجلة الإسلام Der Islam ، حيث تضم أبحاث قيمة نشرها كارل بكر فى استراسبورج وتروبنر منذ سنة ١٩١٠ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) كراسات جنوب ألمانيا Sud Deutschen Monatsheften حيث نشر فيها بكر أبحاث هامة ، منها مقال له نشره فى يوليو سنة ١٩١٨ ، تكلم فيه عن نصيب الحضارة الهلينية وغيرها من حضارة الشعوب الإسلامية فى الحضارة الإسلامية عامة .

ب — ما يتصل منها بجزيرة العرب وحضارتها قبل الإسلام ، وهى :

(١) هـ . جرمة : الأهمية التاريخية العامة لبلاد العرب ؛ محمد

H. Grimme : Die weltgeschichtliche Bedeutung Arabiens : Muhammed.

(٢) ى . فلهاوزن : بقايا الوثنية العربية (الطبعة الثانية ١٨٩٨) .

(٣) ج . يعقوب : حياة بدو العرب القدماء (برلين ١٨٩٧) .

G. Jachobe, Altarabisches Beduinenleben.

(٤) هنرى لامانس : مهد الإسلام ، بلاد العرب الغربية قبيل الهجرة .

H. Lammens, Le berceau de L'Islam. L'Arabie Occidental a la Veille de L'Hégire (Rome 1914).

(٥) ج . فيبر ، بلاد العرب قبل الإسلام (الشرق القديم ، ج ٣ القسم الأول) .

G. Weber, Arabien vor dem Islam (Der Alte Orient, III, 1.

(٦) منشورات جمعية الشرق الأدنى — ١٩٠١ ، ١٩٠٧ .

Mitteilungen der Vorderasiatishen Gesellshaft, 1901, 1907.

حـ — ما يتصل بحياة الرسول :

(١) هـ . ركندرف ، محمد وقومه .

H. Reckendorf, Muhamed [und die Seinen Libstisch (1907).

(٢) نلدكه ، تاريخ القرآن .

Nôldeke. Gesch. des Qorans,

(٣) ل . كيتانى ، حوليات الإسلام .

Leone Caetani, Annale del Islam vol. I — 7. (1905 — 1914).

(٤) دراسات عديدة للالمانس

ى — ما يختص بعصر الفتوح :

(١) أوجست مولر ، الإسلام فى الشرق والغرب .

V. Müller, Der Islam im Morgen und abendlande.

(٢) ج . فايلز ، تاريخ الخلفاء .

G. Weils, Geschichte der Kalifen.

(٣) ى . فلهاوزن ، الدولة العربية وسقوطها

J. Wellhausen. Das arabische Reiche und Sein Sturz (Berlin 1902).

(٤) Becker, The expansion of the Saracens (Camb. Med. History).

(٥) Becker. Der Islam.

(٦) G. Le Strange, The Lands of the Eastern Caliphate.

Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphate.

(٧) دوزى ، تاريخ المسلمين فى الأندلس .

R. Dozy, Geschichte der Mauren in Spanien.

هـ — ما يتصل بعصر الخلافة

(١) تاريخ الأفكار الشائعة فى الإسلام

Alfred Von Kremer, Geschichte der Kershenden Ideen des Islam.

(٢) Kremer, Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen.

(٣) Gustave Lebon, La Civilasation des Arabes.

و — نواحى الحضارة الأخرى

(١) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى

C. Brockelmann, die Geschichte der arabischen literatur geschrieben.

(٢) دى خويه ، حضارة العصر الحاضر ، الجزء الأول القسم السابع .

M. de Goeje, der Kulter der Gegenwart

(٣) فون شاك ، شعر العرب وفنهم فى أسبانيا وصقلية .

Von Schack, Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sicilien.

(٤) جولدتسيهر ، مجلة حضارة العصر الحاضر (الجزء الأول — القسم الثالث)

J. Goldziher, der Kultur der Gegenwart, Teil,I. Abt. III

(٥) Goldziher, Vorlesungen über den Islam heilberg 1910

(٦) بكر ، المسيحية والإسلام .

Becker, Christentum und Islam.

(٧) دى بور ، تاريخ الفلسفة فى الإسلام .

T. de Boer, Geschichte der Philosophie in Islam.

(٨) جولدتسيهر ، الفلسفة الإسلامية واليهودية فى العصور الوسطى .

Goldziher, Die Islamische und die jüdische Philosophie des Mittelalters.

(٩) م . هرتن ، مدخل الحضارة العقلية العليا فى الإسلام .

Max Horten, Einführug in die höhere Geisteskultur des Islam.

(١٠) Berthelot, La chimie au Moyen âges.

(١١) ليكارك ، تاريخ الطب عند العرب .

L. Leclerc, Hist. de la Medicine Arabe.

(١٢) سوتر ، الرياضيون والفلكيون العرب .

H. Suter, Die Mathemaliker und astronomen der araber.

(١٣) ج . رسكا ، أقدم فنون الجبر والحساب .

J. Ruska, älteschen algebra und Rechenckunst.

ز — الفن الإسلامى

(١) H. Saladin & G. Migeon, Manuel d'art Musulman. (Paris 1907).

(٢) أرنست ديتز ، فن الشعوب الإسلامية .

Ernst Diez, Die Kunst der Islamischen Völker

(٣) جورج مارسيه ، آثار تلمسان العربية .

G. Marçais, Les Monuments Arabes de Tlemçan (Paris 1903).

(٤) ف . بوسكو ، مدينة الزهراء والعامرية (مدريد)

Velazquez Bosco, Medina Azzahra y Alamiriya.

(٥) ألويس موصل ، قصير عمرة (فينا ١٩٠٧)

Alois Musil, Kuser Amra (Wien 1907).

(٦) م . دفوجوى ، سوريا الوسطى .

M. de Vogüé, Syrie Centrale (Paris)

(٧) برس دافن ، الفن العربى كما تصوره آثار القاهرة .

Prisse d'avennes, L'arte arabe d'apres Les monu-msnts du Kaire depuis le VIIe Sciecle.

(٨) Monuments historique de la Tunisie

وتشمل الآثار التاريخية فى تونس ، وظهر منها حتى سنة ١٨٨٩ جامع سيدى عقبة تأليف سلادان .

(٩) Monumentos arquitectonicos in Spanien, Berlin 1877.

منها كتاب آدى ، الآثار المعارية فى أسبانيا والبرتغال

Ahde, Baudenkmäler in Spanien uud Purtugal.

ويونج هنديل، فن البناء الأسبانى كما يتجلى فى آثاره الكبيرة (كتب التعليقات على مجموعة اللوحات ، جورليت ، ودرسوف)

M. Junghändel, Die Baukunst Spaniens in ihren hervorragenden werken.

(١٠) ف . سارى ، آثار الفن الفارسى (برلين)

E. Sarre. Deukmäler Persicher Baunkust, (Berlin 1901).



الفهرس

فهرس الصور

الصفحة



ألوان وأرقام مجموعة الألف كتاب

لكل كتاب رقمان . الأول : رقم الكتاب فى السلسلة وهو مكتوب على الصحائف الأولى وعلى كعب الكتاب بين إسم الكتاب وإسم المؤلف والثانى : الرقم الخاص ويدل على رقم الكتاب من حيث الموضوع وهو مكتوب على الغلاف عند أسفل الكعب .

والمجموعة كلها مقسمة إلى أربعة موضوعات رئيسية لكل منها لون خاص

١ — الأدب (أخضر) ويشمل

الأدب العام . تاريخ الأدب . النقد . الشعر والقصص .

٢ — العلوم (أزرق) وتشمل

الزراعة . الصناعة . الطب . الكيميا . الفلك . الحيوان . الرياضيات .

٣ — العلوم الإنسانية (أحمر) وتشمل

الاجتماع . الاقتصاد . التربية . علم النفس . التاريخ والتراجم . الجغرافيا . الرحلات . الدين . السياسة . الفلسفة . القانون . المعارف العامة .

٤ — الفنون (بنى) وتشمل

الاذاعة . التصوير . الرسم . المسرح . الموسيقى . الرياضة البدنية .

صدر من كتب العلوم الإنسانية فى مجموعة الألف كتاب

(اجتماع ، اقتصاد ، تربية ، علم نفس ، تاريخ وتراجم ، جغرافيا ، رحلات ، دين ، سياسة ، فلسفة ، قانون ، معارف عامة)

---

١ — تفسير القرآن
٢ — حضارة الإسلام تأليف جوستاف جو ويتبادم
٣ — الفكر الخوالد تأليف مولاى محمد على .
٤ — اتجاهات الفلسفة المعاصرة تأليف اميل برهييه
٥ — البوليس والكشف عن الجريمة اليوم تأليف ريجنالد موريش
٦ — سكتلنديارد تأليف سير هارولد سكوت
٧ — الحياة العامة اليونانية تأليف ا. ا. زمرن
٨ — فلسفة الخير تأليف لويس دكنسون
٩ — رجال ذللوا الصحراء تأليف رتشى كولدر
١٠ — حركات الشباب للصاغ الدكتور محمد فتحى
١١ — بلاد ما بين النهرين تأليف ل. ديلابورت
١٢ — بسمرك تأليف إميل لدفيج
١٣ — آثار حضارة الفراعنة تأليف محرم كمال
١٤ — الحياة الناجحة تأليف أوستاس تشسر
١٥ — كيف تقرأ الجريدة تأليف ادجار ديل
١٦ — الحياة اليومية فى مصر القديمة تأليف الن شورتر
١٧ — الديانات فى أفريقيا السوداء تأليف هـ . ديشان
١٨ — الطفل من الخامسة إلى العاشرة تأليف ارنولد جزل
١٩ — علم نفسك الاقتصاد . تأليف س. ايفلين توماس
٢٠ — تاريخ الملاحة تأليف ا. تومازى
٢١ — تاريخ العالم من ١٩١٤ — ١٩٥٠ تأليف دافيد تومسون
٢٢ — التاريخ الجغرافى للقرآن تأليف السيد مظفر الدين
٢٣ — نحو مجتمع أفضل تأليف برتراند رسل
٢٤ — الأحلام والجنس تأليف فرويد
٢٥ — تاريخ طابع البريد تأليف أوجين فاييه



أهداف هذه المجموعة

* تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارىء العربى فيها كل ما هو بحاجة اليه من المعلومات فى شتى الموضوعات ، معروضة عرضا سهلا ، يتقبله القارىء العادى ، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والآراء مبسوطة بغاية الدقة ، متمشية مع آخر ماوصل اليه العلم فى تلك الموضوعات

* نشر هذه المكتبة فى أوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الامكان ، واشراك اكبر عدد من الناشرين فى نشرها .

* النهوض بالكتاب العربى من حيث الشكل والموضوع .

* تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .

* الافادة بصورة عملية من جهود العلماء والادباء فى شتى الأمم ، باتاحة الفرصة أمام القارىء العربى للاطلاع الواسع على ماعندهم .

* افساح المجال أمام الشباب الطامح الى الاشتغال بالعلم والأدب للمساهمة بصورة أيجابية فى النهضة العلمية والأدبية .

* تشجيع الناشرين فى مصر والدول الشقيقة على الاقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالمية ، وتعويضهم تعويضا مجزيا .

* تجديد النشاط الفكرى فى العالم العربى عن طريق الكتب القيمة التى تحمل اليه العلم والمعرفة .

